كتاب شرح عجائب القلوب

اعلم : أن أشرف ما في الانسان قلبه ، فإنه العالم بالله ، العامل له ، الساعي اليه ، المقرب المكاشف ، بما عنده ، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد .

ومن عرف قلبه عرف ربه ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم ، والله يحول بين المرء وقلبه ، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته ، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين ، وأساس طريق السالكين .

فصل [في مداخل ابليس في قلب الانسان]

اعلم : أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى ، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى ، مائل عن ذلك ، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم ، الى أن ينفتح القلب لأحدهما ، فيتمكن ، ويستوطن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤] ، وهو الذي إذا ذكر الله خنس ، وإذا وقعت الغفلة انبسط ، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى ، فإنه لا قرار له مع الذكر .

واعلم : أن مثل القلب كمثل حصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ، ويملكه ويستولي عليه ، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها ، ولا يتوصل الى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله ، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد ، وهي كثيرة ، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الحسد ، والحرص ، فمتى كان العبد حريصاً على شيء ، أعماه حرصه وأصمه ، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان .

وكذلك إذا كان حسوداً ، فيجد الشيطان حينئذ الفرصة ، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله الى شهوته ، وإن كان منكراً أو فاحشاً .

ومن أبوابه العظيمة : الغضب ، والشهوة ، والحدة ، فإن الغضب غول العقل ، وإذا

ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالانسان . وقد روي أن إبليس يقول : إذا كان العبد حديداً ، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة .

ومن أبوابه : حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث ، فلا يزال يدعو الى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، والتزين بالثياب ، والأثاث ، فيخسر الانسان طول عمره في ذلك .

ومن أبوابه : الشبع ، فإنه يقوي الشهوة ، ويشغل الطاعة .

ومنها : الطمع في الناس ، فإن من طمع في شخص ، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه ، وداهنه ، ولم يأمره بالمعروف ، ولم ينهه عن المنكر .

ومن أبوابه : العجلة ، وترك التثبت ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « العجلة من الشيطان ، والتأني من الله تعالى »[1] .

ومن أبوابه : حب المال ، ومتى تمكن من القلب أفسده ، وحمله على طلب المال من غير وجهه ، وأخرجه الى البخل ، وخوفه الفقر ، فمنع الحقوق اللازمة .

ومن أبوابه : حمل العوام على التعصب في المذاهب ، دون العمل بمقتضاها .

ومن أبوابه أيضاً : حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى ، وصفاته ، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين .

ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين ، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه ، احتقره وأطلق فيه لسانه ، ورأى نفسه خيراً منه ، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان ، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن ، والمنافق يبحث عن عيوبه .

وينبغي للانسان أن يحترز عن مواقف التهم ، لئلا يساء به الظن ، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان ، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة ، وسيأتي الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلاً .

إذا قُلعت من القلب أصول هذه الصفات ، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار ، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى ، وعمارة القلب بالتقوى .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٣) في البر والصلة : باب ما جاء في التأني والعجلة من حديث سهل بن سعد الساعدي ولفظه « الأناة من الله ،والعجلة من الشيطان » وفي سنده عبد المهيمن بن عباس وهو ضعيف .

ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز ، فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع ، لم يندفع عنك بمجرد الكلام ، فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر .

فأما القلب الذي غلب عليه الهوى ، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه ، فلا يتمكن الذكر من سويدائه ، فيستقر الشيطان في السويداء .

وإذا أردت مصداق ذلك ، فتأمل هذا في صلاتك ، وانظر الى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل ذلك الموطن ، بذكر السوق ، وحساب المعاملين ، وتدبير أمر الدنيا .

واعلم : أنه قد عفي عن حديث النفس ، ويدخل في ذلك ما هممت به ، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة ، وإن تركه لعائق ، رجونا له المسامحة ، إلا أن يكون عزماً ، فإن العزم على الخطيئة خطيئة ، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قيل : ما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم ، والأعمال بالنية ، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة ؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها ، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها ، وكل هذا متعلق بعقد القلب .

فصل [في ثبات القلوب على الخير]

وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، يا مصرف القلوب اصرف قلبنا الى طاعتك » .

وفي حديث آخر : « مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح »[1] .

واعلم : أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة :

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٨) من حديث أبي موسى الأشعري ، وفي سنده يزيد الرقاشي وهو ضعيف ، واخرجه البغوي في « شرح السنة » (٨٧) وسنده صحيح ، رواه أحمد ٤/ ٤٠٨ بسندين صحيحين ولفظ الأول « مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة يقلبها الريح ظهراً لبطن » ولفظ الثاني « إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض تقيئها الريح ظهراً لبطن » .

القلب الأول : قلب عمر بالتقوى ، وزكي بالرياضة ، وطهر عن خبائث الأخلاق ، فتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ، فيمده الملك بالهدى .

القلب الثاني : قلب مخذول ، مشحون بالهوى ، منكس بالخبائث ، ملوث بالأخلاق الذميمة ، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه ، ويضعف سلطان الايمان ، ويمتلىء القلب بدخان الهوى ، فيعدم النور ، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان ، لا يمكنها النظر ، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ .

والقلب الثالث : قلب يبتدىء فيه خاطر الهوى ، فيدعوه الى الشر ، فيلحقه خاطر الايمان ، فيدعوه إلى الخير .

مثاله ، أن يحمل الشيطان حملة على العقل ، ويقوي داعي الهوى ويقول : أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون أنفسهم في هواها ، حتى يعد جماعة من العلماء ، فتميل النفس الى الشيطان ، فيحمل الملك حمله على الشيطان ، ويقول : هل هلك إلا من نسي العاقبة ، فلا تغتر بغفلة الناس عن أنفسهم ، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد ، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة ؟ أفتخالفهم في حر الشمس ، ولا تخالفهم فيما يؤول الى النار ؟ فتميل النفس الى قول الملك ، ويقع التردد بين الجندين ، الى أن يغلب على القلب ما هو أولى به ، فمن خلق للخير يسر له ، ومن خلق للشر يسر له : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الانعام : ١٢٥] . اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه .

* * *

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق

ومعالجة أمراض القلب

وذلك في فصول :

أعلم : أن الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين ، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة ، تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان ، وأمراض تفوت جاه الأبد ، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها ، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض ، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل ، فإن ذلك يأتي مبيناً إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول
في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذكر شيء من ذلك في آداب الصحبة .

واعلم : أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته ، ولم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه ، وكشف الحقيقة في ذلك أن يقال : كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق ، فيقال : فلان حسن بالخَلق والخُلق . أي حسن الظاهر والباطن ، فالمراد بالخَلق : الصورة الظاهرة ، والمراد بالخُلق : الصورة الباطنة ، وذلك أن الانسان مركب من جسد ونفس .

فالجسد مدرك بالبصر ، والنفس مدركة بالبصيرة ، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أو قبيحة ، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ، ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى أمره فقال : ﴿ إنـي خَالـقٌ بَشَـراً من طين* فإذَا سَوَّيْتُـهُ وَنَفَخْتُ فيهِ من رُوحي ﴾ [ص : ٧١ - ٧٢] ، فنبه على أن الجسد منسوب الى الطين ، والروح منسوب اليه سبحانه وتعالى ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقاً حسناً ، وإن كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً .

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة ، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر .

والجواب : أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى ، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس ، والكلب يعلم ترك الأكل ، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد ، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح ، وبعضها مستصعبة .

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبلّة لا يتغير ، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية ، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط ، وأما قمعها بالكلية فلا ، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة ، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان . أو شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية ، لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه . وقد قال الله

تعالى : ﴿ أشدَّاء على الكُفَّار﴾ [الفتح : ٢٩] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب ، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار ، وقال تعالى : ﴿ والكَاظمينَ الغَيْظَ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، ولم يقل : الفاقدين الغيظ .

وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل ، قال الله تعالى : ﴿ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾[الاعراف : ٣١] إلا أن الشيخ المرشد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغضب والشهوة ، حسن أن يبالغ في ذمهما على الإطلاق ليرده إلى التوسط ، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً ، وهو وسط بين طرفي التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله :﴿وَالَّذِينَ إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَم يَقتروا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً ﴾[الفرقان : ٦٧] .

واعلم أن هذا الاعتدال . تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق ، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً ، وتارة يحصل بالاكتساب ، وذلك بالرياضة ، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب ، فمن أراد تحصيل حلق الجود ، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له .

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين ، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً في ذلك ، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة ، أو فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار ، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه ، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة ، وانما يؤثر مع الدوام ، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة . وللدوام تأثير عظيم .

وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات ، فإن دوامها يؤثر ، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب .

وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها ، فكذلك مساكنة الكسل أيضاً يصير عادة ، فيحرم بسببه كل خير .

وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير ، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر .

قلت : ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

الفصل الثاني

في بيان الطريق الى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض ، فاعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه ، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء ، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً ، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة ، وإن كان مريضاً ، فشأنه جلب الصحة إليه ، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق ، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها ، وإن كانت عديمة الكمال ، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه .

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها ، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة ، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب ، علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالعلم ، ومرض البخل بالسخاء ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى .

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء ، وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال المجاهدة ، والصبر على مداواة مرض القلب ، بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً .

وينبغي للذي يطبُّ نفوس المريدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص ، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، اذ ليس علاج كل مريض واحداً ، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه ، واذا رأى متكبراً حمله على ما يوجب التواضع ، أو شديد الغضب ألزمه الحلم .

وأشد حاجة الرائض لنفسه ، قوة العزم ، فمتى كان متردداً بَعُدَ فلاحُه ، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبَّر ، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود ، كما قال رجل لنفسه : تتكلمين فيما لا يعنيك ؟ لأعاقبنك بصوم سنة .

الفصل الثالث

في علامات مرض القلب وعوده الى الصحة وبيان الطريق الى معرفة الانسان عيوب نفسه

اعلم : أن كل عضو خلق لفعل خاص ، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل ، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب ، فمرض اليد تعذر البطش ، ومرض العين تعذر الإبصار ، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله ، وهو العلم والحكمة والمعرفة ، وحب الله تعالى وعبادته ، وايثار ذلك على كل شهوة .

فلو أن الانسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه ، كان كأنه لم يعرف شيئاً .

وعلامة المعرفة : الحب ، فمن عرف الله أحبه ، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات ، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض ، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز ـ وقد سقطت عنها شهوة الخبز ـ مريضة .

ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفُل عنه ، وان عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه ، لأن دواءه مخالفة الهوى ، وان وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء ، والمرض قد استولى عليهم ، والطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً ، واندرس هذا العلم ، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية ، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض .

وأما عافيته وعوده الى الصحة بعد المعالجة ، فهو أن ينظر الى العلة ، فإن كان يعالج داء البخل ، فعلاجه بذل المال ، ولكنه لا يسرف ، ويصير الى حد التبذير ، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة ، فيكون داءً أيضاً ، بل المطلوب الاعتدال .

وإذا أردت أن تعرف الوسط ، فانظر إلى نفسك ، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك ، وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فعالج نفسك على البذل ، وإن صار البذل للمستحق ألذ عندك ، وأخف عليك من الإمساك ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجع الى المواظبة على الامساك ، ولا تزال تراقب نفسك ،

وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها ، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج ، فكل قلب صار كذلك ، فقد جاء الله سليما في هذا المقام .

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق ، حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها ، غير ملتفتة إليها ، ولا متشوفة الى أسبابها ، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة .

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتقيم ﴾ [الفاتحة : ٦] ، ومن لم يقدر على الاستقامة ، فليجتهد على القرب من الاستقامة فان النجاة بالعمل الصالح .

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة ، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد ، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر ، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له ، فلو رد إلى الثدي لكرهه ، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة . حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد ، فعند الصباح يحمد القوم السُّرَى .

واعلم : أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت له بصيرة ، لم تخف عليه عيوبه ، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه .

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه ، فله في ذلك أربع طرق :

الطريقة الأولى : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها ، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده ، فمن وقع به ، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه .

الطريقة الثانية : أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : رحم الله امرءاً أهدى الينا عيوبنا .

وسأل سلمان رضي الله عنه لما قدم عليه من عيوبه ، فقال : سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين : حلة بالليل ، وحلة بالنهار ، فقال : هل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، قال : أما هذا فقد كفيتهما .

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة : هل أنا من المنافقين ؟ وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه ، إلا أنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة ، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة ، فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب .

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم ، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا .

وهذا دليل على ضعف الايمان ، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب ، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة ، واشتغلنا بقتلها ، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى .

الطريقة الثالثة : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدي المساوىء ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه .

الطريقة الرابعة : أن يخالط الناس ، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم ، يجتنبه .

فصل [في شهوات النفوس]

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة ، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء ، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل ، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها ، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر ، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس ، وهذا ظلم لها باسقاط حقها ، فإن لها حقاً بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لنفسك عليك حقاً » حتى إن قائلاً منهم يقول : لي كذا وكذا سنة أشتهي كذا ، فلا أتناوله ، وهذا انحراف عن الحلّ وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه كان

يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما ، فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه ، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الاطلاق ، فإنه إلى الظلم أقرب منه الى العدل ، وإنما يترك المشتهى إذا صعبت الطريق اليه ، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه ، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه ، فتطمع النفس في استدامته ، أو يحذر من ذلك زيادة شبع ، فيثقله عن عبادته ، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس ، فذلك كالطب للمريض ، يمدح ولا يذم ، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك .

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي ، ثم ظن أنه قد هذب خلقه ، واستغنى عن المجاهدة ، وليس كذلك ، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين ، وقد وصفهم الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾[الأنفال : ٢ - ٣ - ٤] ، وقال : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة : ١١٢] وقال تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) الى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾[المؤمنون : ١ - ١٠] ، وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾[الفرقان : ٦٣] الى آخر السورة ، فمن أشكل عليه حاله ، فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بها الى محاسن الأخلاق .

ففي الصحيحين « من حديث أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه

قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وفي حديث آخر : « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم أخلاقاً » .

ومن حسن الخلق : احتمال الأذى ، ففي « الصحيحين » أن أعرابياً جذب رداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أثرت حاشيته في عاتقه صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء .

وكان اذا آذاه قومه قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

وكان أويس القرني اذا رماه الصبيان بالحجارة يقول : يا إخوتاه ، ان كان ولا بد ، فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة .

وخرج ابراهيم بن أدهم الى بعض البراري ، فاستقبله جندي فقال : أين العمران ؟ فأشار الى المقبرة ، فضرب رأسه فشجه ، فلما أخبر أنه ابراهيم ، جعل يقبل يده ورجله ، فقال : انه لما ضرب رأسي ، سألت الله له الجنة ، لأني علمت أني أوجر بضربه اياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير ، ونصيبه مني الشر .

واجتاز بعضهم في سكة ، فطرح عليه رماد من السطح ، فجعل أصحابه يتكلمون . فقال : من استحق النار فصولح على الرماد ، ينبغي له أن لا يغضب .

فهذه نفوس ذللت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقهم ، ونقيت عن الغش بواطنها ، فأثمرت الرضى بالقضاء ، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء ، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل ، فإنه بعدُ ما وصل .

فصل في رياضة الصبيان في أول النشوء

اعلم : أن الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه جوهرة ساذجة ، وهي قابلة لكل نقش ، فإن عُوِّدَ الخير نشأ عليه ، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه ، وان عود الشر نشأ عليه ، وكان الوزر في عنق وليه ، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب اليه أسباب الرفاهية

فيضيع عمره في طلبها اذا كبر .

بل ينبغي ان يراقبه من أول عمره ، فلا يستعمل في رضاعه وحضانته الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء ، وذلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه .

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يعلم آداب الأكل ، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الادام فيراه كالحتم ، ويقبح عنده كثرة الأكل ، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم ، ويحبب اليه الثياب البيض دون الملوثة والابريسم ، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين ، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم ، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار ، ليغرس في قلبه حب الصالحين ، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق .

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود ، فينبغي أن يكرم عليه ، ويجازى بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف ، فإن عاد عوتب سراً وخُوِّفَ من اطلاع الناس عليه ، ولا يكثر عليه العتاب ، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة ، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه .

وينبغي للأم أن تخوفه بالأب ، وينبغي أن يمنع النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل ، ولا يمنع النوم ليلاً ، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه .

ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم .

ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل .

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه ، أو بمطعمه أو ملبسه .

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره .

ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبي مثله ، ويعلم أن الأخذ دناءة ، وأن الرفعة في الإعطاء .

ويقبح عنده حب الذهب والفضة .

ويعود أن لا يبصق في مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ويمنع من كثرة الكلام .

ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً ، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه ، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه .

ويمنع من فحش الكلام ، ومن مخالطة من يفعل ذلك ، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء .

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل ، ليستريح به من تعب التأديب ، كما قيل : روح القلوب تع الذكر .

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم .

وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة ، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود ، ويخوف من الكذب والخيانة ، وإذا قارب البلوغ ، ألقيت إليه الأمور .

واعلم : أن الأطعمة أدوية ، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى ، وأن الدنيا لا بقاء لها ، وأن الموت يقطع نعيمها ، وهو منتظر في كل ساعة ، وأن العاقل من تزود لآخرته ، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا في قلبه ، كما يثبت النقش في الحجر .

قال سهل بن عبد الله : كنت ابن ثلاث سنين ، وأنا أقوم بالليل أنظر الى صلاة خالي محمد بن سوار ، فقال لي خالي يوماً : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ قلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك : الله معي ، الله ناظر إليّ ، الله شاهدي ، فقلت ذلك ليالي ، ثم أعلمته ، فقال : قلها في كل ليلة إحدى عشر مرة . فقلت ذلك ، فوقع في قلبي حلاوته ، فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي : احفظ ما علمتك ، ودم عليه الى أن تدخل قبرك ، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت له حلاوة في سري ، ثم قال لي خالي : يا سهل من كان الله معه ، وهو ناظر اليه ، وشاهد عليه ، هل يعصيه ؟ إياك والمعصية ومضيت الى المكتب ، وحفظت القرآن ، وأنا ابن ست سنين أو سبع ، ثم كنت أصوم الدهر ، وقوتي من خبز الشعير ، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله .

فصل [في شروط الرياضة]

واعلم : أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين ، أصبح بالضرورة مريداً لها ،

زاهداً في الدنيا ، فإن من كان معه خرزة ، فرأى جوهرة نفيسة ، لم يبق له رغبة في الخرزة ، فإذا قيل له : بعها بالجوهرة ، أسرع في ذلك .

واعلم : أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك ، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لا بد من تقديمه ، ومعتصماً لا بد من التمسك به ، وحصناً لا بد من التحصن به .

فأما الشرط ، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب .

وأما المعتصم ، فشيخ يدله على الطريق لئلا تختطفه الشياطين في السبل .

وأما الحصن ، فالخلوة ، وعليه من الوظائف مخالفة الهوى ، وكثرة الذكر والاقتصاد في الأوراد .

ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً ، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ، ولا يخلو إلا بطول المجاهدة ، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج ، فأما تفصيل الرياضة في كل صفة ، فسيأتي إن شاء الله تعالى .

* * *

كتاب كسر الشهوتين : شهوة البطن ، وشهوة الفرج

شهوة البطن من أعظم المهلكات ، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة ، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال ، ويتبع ذلك آفات كثيرة ، كلها من بطر الشبع .

وفي الحديث ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « المؤمن يأكل في معىً واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » .

وفي حديث آخر : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه » .

وقال عقبة الراسبي : دخلت على الحسن وهو يتغدى ، فقال : هلم ، فقلت : أكلت حتى لا أستطيع ، فقال : سبحان الله أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل ؟ !

وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع ، وقد بينا عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب ، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة ، ونهاية المقام الحسن قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض ، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه ، ثم يرفع يده وهو يشتهيه ، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى ، وقد قلل أقوام مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض ، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة ، وليس كذلك ، ومن مدح الجوع ، فإنما أشار الى الحالة المتوسطة التي ذكرناها .

وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع ، فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان ، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا اليه ، وخير الأمور أوساطها ، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات ، ويكون سبباً لبقاء القوة ، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع ، فحينئذ يصح البدن ، وتجتمع الهمة ، ويصفو الفكر ، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم ، وبلادة الذهن ، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر ، وموضع الذكر ، ويجلب أمراضاً أخر .

وليحذر من ترك شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء ، وقد كان بعضهم

يشتري الشهوة ويعلقها في بيته وهو زاهد فيها ، يستر بها زهده ، وهذا هو الزهد ، في الزهد باظهار ضده ، وهو عمل الصديقين ، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين ، والثانية أمر .

وأما شهوة الفرج ، فاعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين :

إحداهما : بقاء النسل ، والثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة ، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق ، لا يعظم اليه الشوق ، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة الى الاعتدال ، جلبت آفات كثيرة ، ومحناً ، ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما تركت في الناس بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » .

وقال بعض الصالحين : لو ائتمنني رجل على بيت مال ، لظننت أن أؤدي إليه الأمانة ، ولو ائتمنني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة ، ما ائتمنت نفسي عليها .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يخلو رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان » .

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة ، حتى تصرف همة الرجل الى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة ، وربما آل الى الفواحش ، وقد تنتهي بصاحبها الى العشق ، وهو أقبح الشهوات ، وأجدرها أن تستحيى منه ، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال ، والجاه ، واللعب بالنرد ، والشطرنج ، والطنبور ، ونحو ذلك ، فتستولي هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها .

ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور ، فإن آخرها يفتقر الى علاج شديد ، وقد لا ينجع ، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها الى باب تريد دخوله ، فما أهون منعها بصرف عنانها ، ومثال من يعالجه بعد استحكامه ، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه ، ثم يأخذ بذنبها يجرها الى وراء ، وما أعظم التفاوت بين الأمرين !!

* * *

كتاب آفات اللسان

آفاته كثيرة متنوعة ، ولها في القلب حلاوة ، ولها بواعث من الطبع ، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت ، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت ، ثم نتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى .

اعلم : أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر .

وفي الحديث ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من يضمن لي ما بين لَحْيَيْه ، وما بين رجليه أضمنْ له الجنة » .

وفي حديث آخر : « لا يستقيمُ إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيمَ لسانُه »[1] .

وفي حديث معاذ في آخره : « كف عليك هذا » فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤخذون بما نتكلم به ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ، أو قال : على مناخرهم ، ألا حصائد ألسنتهم ؟ » .

وفي حديث آخر : « من كف لسانه ستر الله عورته »[2] .

وقال ابن مسعود : ما شيء أحوج الى طول سجن من لساني .

وقال أبو الدرداء : أنصف أذنيك من فيك ، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد ، لتسمع أكثر مما تتكلم به .

وقال مخلد بن الحسين : ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها .

ذكر آفات الكلام :

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعني .

واعلم : أن من عرف قدر زمانه ، وأنه رأس ماله ، لم ينفقه إلا في فائدة ، وهذه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » من حديث أنس ، وفي سنده علي بن مسعدة ، قال البخاري : فيه نظر ، وقال ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » من حديث ابن عمر ، وفيه هشام بن أبي ابراهيم قال الذهبي في « الميزان » : مجهول ، وباقي رجاله ثقات ، ومع ذلك فقد حسن اسناده العراقي .

المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني ، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني ، كان كمن قدر على أخذ جوهرة ، فأخذ عوضها مَدَرة ، وهذا خسران العمر .

وفي الحديث الصحيح ؛ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

وقيل للقمان الحكيم : ما بلغ من حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيته ، ولا أتكلم بما لا يعنيني .

وقد روي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ، فجعل يتعجب مما رأى ، فأراد أن يسأله عن ذلك ، فمنعته حكمته فأمسك ، فلما فرغ داود عليه السلام ، قام ولبس الدرع ثم قال : نعم الدرع للحرب . فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله .

الآفة الثانية : الخوض في الباطل ، وهو الكلام في المعاصي ، كذكر مجالس الخمر ، ومقامات الفساق .

وأنواع الباطل كثيرة . وعن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » . وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة[1] للشخص لبيان غلطه وإفحامه ، والباعث على ذلك الترفع .

فينبغي للانسان أن ينكر المنكر من القول ، ويبين الصواب ، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة ، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين ، فأما إذا كان في أمور الدنيا ، فلا وجه للمجادلة فيه ، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل ، وأعظم من المراء الخصومة ، فإنها أمر زائد على المراء .

وعن النبي صلى الله عليه آله وسلم أنه قال : « أبغض الرجال الى الله الألد الخَصِم » . وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم ، فأما من له حق فالأولى أن يصدف[2] عن الخصومة مهما أمكن لأنها ، توغر الصدر ، وتهيج الغضب ،

---

(١) يقال : لاحيته ملاحاة ولحاء : إذا نازعته ، وفي المثل : من لاحاك فقد عاداك ، وقولهم : لحاه الله ، أي : قبحه ولعنه .
(٢) يصدف : يعرض .

وتورث الحقد ، وتخرج الى تناول العرض .

الآفة الثالثة : التقعر في الكلام ، وذلك يكون بالتشدق[1] ، وتكلف السجع .

وعن أبي ثعلبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون[2] المتشدقون المتفيهقون [3] » .

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب ، والتذكير من غير إفراط ، ولا إغراب ، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب ، وتشويقها ، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك .

الآفة الرابعة : الفحش والسب والبذاء [4] ، ونحو ذلك ، فإنه مذموم منهي عنه ، ومصدره الخبث واللؤم .

وفي الحديث : « إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » .

« الجنة حرام على كل فاحش »[5] .

وفي حديث آخر : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » .

واعلم : أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به ، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها .

ومن الآفات : الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضع .

الآفة الخامسة : المزاح ، أما اليسير منه ، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً .

فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فإنه قال لرجل : « يا ذا الأذنين » ، وقال لآخر : « إنا حاملوك على ولد الناقة » ، وقال للعجوز : « إنه لا يدخل الجنة عجوز » ثم قرأ : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ [الواقعة :

---

(١) وهو أن يلوي شدقه للتفصح .

(٢) الثرثرة : كثرة الكلام وترديده ، يقال : ثرثر الرجل ، فهو ثرثار مهذار .

(٣) قال الفراء : فلان يتفيهق في كلامه : وذلك إذا توسع فيه وتنطع ، وأصله : الفهق ، وهو الامتلاء ، كأنه ملأ به فمه .

(٤) البذاء ، بالمد : الفحش ، وفلان بذيء اللسان من قوم أبذياء ، والمرأة بذيئة .

(٥) اخرجه ابن ابي الدنيا وابو نعيم في « الحلية » من حديث عبد الله بن عمرو ، واسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة .

٣٥ ـ ٣٦][1] ، وقال لأخرى : « زوجك الذي في عينيه بياض ؟ »[2] .

فقد اتفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء :

أحدها : كونه حقاً .

والثاني : كونه مع النساء والصبيان ، ومن يحتاج الى تأديبه من ضعفاء الرجال .

والثالث : كونه نادراً ، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه ، فان حكم النادر ليس كحكم الدائم ، ولو أن انساناً دار مع الحبشة ليلاً ونهاراً ينظر الى لعبهم واحتج بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر الى الحبشة ، لكان غالطاً ، لندور ذلك ، فالافراط في المزاح والمداومة عليه منهي عنه ، لأنه يسقط الوقار ، ويوجب الضغائن والأحقاد ، وأما اليسير كما تقدم ، من نحو نوع مزاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فان فيه انبساطاً وطيب نفس .

الآفة السادسة : السخرية والاستهزاء ، ومعنى السخرية : الاحتقار والاستهانة ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والإيماء ، وكله ممنوع منه في الشرع ، ورد النهي عنه في الكتاب والسنة .

الآفة السابعة : افشاء السر ، وإخلاف الوعد ، والكذب في القول واليمين ، وكل ذلك منهي عنه ، الا ما رخص فيه من الكذب لزوجته ، وفي الحرب ، فان ذلك يباح .

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل اليه الا بالكذب ، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً ، وإن كان المقصود واجباً ، فهو واجب ، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن .

وتباح المعاريض ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن في المعاريض مندوحة عن الكذب »[3] ، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة اليها ، فأما مع غير الحاجة ،

---

(١) اخرجه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) مرسلا ، واسنده ابن الجوزي في « الوفاء » من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) عزاه العراقي للزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ، ولم يذكر سنده ولا تكلم عليه بشيء .

(٣) أخرجه البيهقي وابن عدي من حديث عمران بن حصين مرفوعاً ، وفي سنده داود بن الزبرقان وهو متروك وكذبه الأزدي ، لكن رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٥) موقوفاً على عمران بن حصين بلفظ « إن في معاريض الكلام

فمكروهة لأنها تشبه الكذب .

فمن المعاريض ما روينا عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه أصاب جارية له ، فعلمت امرأته ، فأخذت شفرة ، ثم أتت فوافقته قد قام عنها ، فقالت : أفعلتها ؟ فقال : ما فعلت شيئاً ، قالت ، لتقرأن القرآن أو لأبعجنك بها ، فقال رضي الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطع
يبيت يُجافي جنبه عن فراشه ... اذا استثقلت بالكافرين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبُنا ... به موقناتٌ أنَّ ما قال واقع

قالت : آمنت بالله وكذبت بصري .

وكان النخعي إذا طلب قال للجارية : قولي لهم : اطلبوه في المسجد .

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها ، وشبه صاحبها بآكل الميتة .

وفي الحديث : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » .

وعن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته » .

وفي حديث آخر : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، إن الرجل قد يزني ويشرب ، ثم يتوب ويتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه »[1] .

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما : إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس . والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة .

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً في

= مندوحة عن الكذب » ورجاله ثقات . وأخرج أيضاً (٨٨٤) من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر قال : « أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب » والمعاريض والمعارض باثبات الياء وحذفها جمع معراض من التعريض بالقول ، قال الجوهري : هو خلاف التصريح ، وهو التورية بالشيء عن الشيء .

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغيبة » وابو الشيخ في « التوبيخ » عن جابر وأبي سعيد ، وفي سنده عباد بن كثير وهو متروك .

بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ، ونحو ذلك .

أو في نسبه ، كقولك : أبوه نبطي ، أو هندي ، أو فاسق ، أو خسيس ، ونحو ذلك .

أو في خُلُقه كقولك ، هو سيء الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك .

أو في ثوبه ، كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

والدليل على ذلك ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الغيبة قال : « ذكرك أخاك بما يكره » . قال : أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « إن كان في أخاك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

واعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل في الغيبة ، سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ، والإشارة والكتابة بالقلم ، فإن القلم أحد اللسانين .

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل في طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم .

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلي بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده .

واعلم : أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف ، فبقلبه وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق »[1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من حمى مؤمناً من منافق يعيبه ، بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم »[2] .

---

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٣) من حديث معاذ بن أسد الجهني ، وفي سنده مجهول وضعيف .

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع في آخر ، فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل ، إنما نظر الى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها .

وقد وردت أحاديث في حق المسلم على المسلم ، تقدمت في كتاب الصحبة .

فصل في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفي الغيظ ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه ، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

السبب الثاني : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل ، وفهمه ركيك ، ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة ، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته ، وأن حسناته تنقل الى المغتاب اليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل اليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه ، ويشتغل باصلاحها ، ويستحي أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

فإن عُبْتَ قوماً بالذي فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه .

فلينظر في السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها . وقد ذكرنا بعض أسبابها ، فيعالج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب ، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضى المخلوقين بسخطه ، بل ينبغي أن يغضب على رفقائه ، وعلى نحو هذا معالجة البواقي .

فصل [في حصول الغيبة بسوء الظن]

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .

والظن ما تركن إليه النفس ويميل اليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك الى تصديقه ، كنت معذوراً ، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغي أن تبحث ، هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم ، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير ، فان ذلك يغبط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقي اليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .

وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه في السر .

واعلم : أن من ثمرات سوء الظن التجسس ، فان القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وذلك منهي عنه ، لأنه يوصل الى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك أسلم للمسلم .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص في ذكر مساوىء الغير ، وهو غرض صحيح في الشرع ، لا

يمكن التوصل إليه إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :

أحدها : التظلم ، فان للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه الى من يستوفي حقه .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم الى منهاج الصلاح .

الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتي : ظلمني فلان ، أو أخذ حقي ، فكيف طريقي في الخلاص ، فالتعيين مباح ، والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : إن أبا سفيان رجل شحيح ولم ينكر عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد الى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشتري .

وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة ، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

الخامس : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له »[1] .

وقيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكري له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ، ولا كرامة .

وأما كفارة الغيبة ، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين :

---

(١) أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في الأمثال ، وابن حبان في الضعفاء ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » ، والبيهقي في « السنن » و « الشعب » والديلمي ، والخطيب ، وابن عساكر ، وفي سنده عندهم رواد بن الجراح اختلط بآخره فترك ، وقال ابن عدي : عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الناس ، وقد ضعف حديثه هذا الحافظان البيهقي والعراقي .

إحداهما : على حق الله تعالى ، إذ فعل ما نهاه عنه ، فكفارة ذلك التوبة والندم .
والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فان كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستحله ، وأظهر له الندم على فعله .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه » .

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوغر صدره .

وقد ورد في الحديث : « كفارة من اغتيب أن يستغفر له »[1] .

وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات .

الآفة التاسعة من آفات اللسان : النميمة ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يدخل الجنة قتات » وهو النمام .

واعلم : أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول انسان في انسان ، مثل أن يقول : قال فيك فلان كذا وكذا ، وليست مخصوصة بهذا ، بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال ، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره ، فهو نميمة . وكل من نقلت إليه النميمة ، مثل أن يقال له : قال فيك فلان كذا وكذا ، أو فعل في حقك كذا ، ونحو ذلك ، فعليه ستة أشياء :

الأول : أن لا يصدق الناقل ، لأن النمام فاسق مردود الشهادة .
الثاني : أن ينهاه عن ذلك وينصحه .
الثالث : أن يبغضه في الله ، فإنه بغيض عند الله .
الرابع : أن لا يظن بأخيه الغائب السوء .

الخامس : أن لايحمله ما حكي له على التجسس والبحث ، لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ

---

(١) لا يصح ، في سنده عنبسة بن عبد الرحمن القرشي قال : البخاري : تركوه ، وقال أبو حاتم : كان يضع الحديث .

تَجَسَّسُوا ﴾[الحجرات : ١٢] .

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه ، فلا يحكي نميمته .

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل : بلغني أنك وقعت فيَّ ، وقلت كذا وكذا . فقال الرجل : ما فعلت ، فقال سليمان : ان الذي أخبرني صادق ، فقال الرجل : لا يكون النمام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت ، اذهب بسلام .

وقال يحيى بن أبي كثير : يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر .

وقد حكي أن رجلا ساوم بعبد ، فقال مولاه : اني أبرأ اليك من النميمة والكذب ، فقال : نعم ، أنت بريء منهما ، فاشتراه . فجعل يقول لمولاه : إن امرأتك تبغي وتفعل ، وإنها تريد أن تقتلك ، ويقول للمرأة : ان زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى ، فان أردت أن أعطفه عليك ، فلا يتزوج ولا يتسرى ، فخذي الموسى واحلقي شعرة من حلقه اذا نام ، وقال للزوج : انها تريد أن تقتلك اذا نمت . قال : فذهب فتناوم لها ، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه ، فأخذ بيدها فقتلها ، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه .

الآفة العاشرة : كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ، وينقل كلام كل واحد الى الآخر ، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه ، أو يعده أنه ينصره ، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر .

وفي الحديث : « ان شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » .

واعلم : أن هذا فيمن لم يضطر الى ذلك ، فأما إذا اضطر الى مداراة الأمراء جاز .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشر[1] في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم . ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له .

الآفة الحادية عشرة : المدح ، وله آفات :

منها : ما يتعلق بالمادح ، ومنها : ما يتعلق بالممدوح . فأما آفات المادح ، فقد

---

(١) التكشير : التبسم ، والخبر علقه البخاري في « صحيحه » عن أبي الدرداء .

يقول مالا يتحققه ، ولا سبيل للاطلاع عليه ، مثل أن يقول : إنه ورع وزاهد ، وقد يفرط في المدح فينتهي الى الكذب ، وقد يمدح من ينبغي أن يذم .

وقد روي في حديث : « إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق »[1] .

وقال الحسن : من دعا لظالم بالبقاء ، فقد أحب أن يعصى الله .

وأما الممدوح ، فإنه يحدث فيه كبراً أو إعجاباً ، وهما مهلكان ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع رجلاً يمدح رجلاً : « ويلك ، قطعت عنق صاحبك » . . الحديث وهو مشهور .

وقد روينا عن الحسن قال : كان عمر رضي الله عنه قاعداً ومعه الدِّرة والناس حوله ، إذ أقبل الجارود ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر رضي الله عنه ومن حوله ، وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه[2] بالدِّرة ، فقال : مالي ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : مالي ولك ، أما سمعتها ؟ قال : سمعتها ، فمه ؟ قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطىء[3] منك ، ولأن الانسان إذا أثنى عليه بالخير رضي عن نفسه ، وظن أنه قد بلغ المقصود ، فيفتر عن العمل ، ولهذا قال : « قطعت عنق صاحبك . . . » .

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس ، فقد أثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل ، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه ، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه .

وقد روي أن رجلاً من الصالحين أثنى عليه ، فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني .

الآفة الثانية عشرة : الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » والبيهقي في « الشعب » من حديث أنس ، وفي سنده أبو خلف الاعمى كذبه يحيى ابن معين ، وقال أبو حاتم : منكر الحديث .

(٢) خفقه يخفقه ، بضم الفاء وكسرها : ضربه .

(٣) اي أخفض منك وأطأ منك .

لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى ، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر في علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن يعفو الله عنه لجهله .

مثال ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا يقل أحدكم : ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل ، ما شاء الله ثم شئت »[1] ، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية ، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله : « ومن يعصهما فقد غوى » وقال : « قل : ومن يعص الله ورسوله » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يقل أحدكم : عبدي وأمتي ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل ، غلامي وجاريتي » .

وقال النخعي : اذا قال الرجل للرجل : يا حمار ، يا خنزير ، قيل له يوم القيامة : أرأيتني خلقته حماراً ، أو أرأيتني خلقته خنزيراً .

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ، ولا يمكن حصره ، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان ، علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صمت نجا » ، لأن هذه الآفات مهالك وهي على طريق المتكلم ، فإن سكت سلم .

فصل [لا تسأل عن صفات الله عز وجل]

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه .

اعلم : أن الشيطان يخيل الى العامي أنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل ، فلا يزال يحبب اليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يوشك الناس أن يسألوا ، حتى يقولوا : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله؟» فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات ، وبحثهم عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم ، اذ الواجب عليهم التسليم ، فالأولى بالعامي الإيمان بما ورد به القرآن ، ثم التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث ،

---

(١) وفي هذا الحديث دليل على ان المرء مؤاخذ بلفظه كما هو مؤاخذ بنيته ، ولذا يجب على المسلم أن يخص الله بالعبادة والدعاء والتوكل والاستعانة ، ولا يشرك معه غيره بذلك .

واشتغالهم بالعبادات ، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم ، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك .

* * *

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

اعلم : أن الغضب شعلة من النار ، وأن الانسان ينزع فيه عند الغضب عرق الى الشيطان اللعين ، حيث قال : ﴿ خَلَقْتَني من نارٍ وَخَلَقْتَهُ من طينٍ ﴾[الأعراف : ١٢] فان شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظي والاشتعال ، والحركة والاضطراب .

ومن نتائج الغضب : الحقد والحسد ، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذي قال له : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، فردد عليه مراراً ، قال : « لا تغضب » .

وفي حديث آخر أن ابن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ماذا يبعدني من غضب الله عز وجل ؟ قال : « لا تغضب » .

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس الشديد بالصُّرعَة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾[آل عمران : ٣٩] قال : السيد الذي يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه .

وروينا أن ذا القرنين لقي ملكاً من الملائكة فقال : علمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً،قال : لا تغضب ، فان الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة ، وإياك والعجلة ، فانك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً .

وروينا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام ، فقال يا موسى : إياك والحدَّة ، فاني ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة ، وإياك والنساء ، فاني لم أنصب فخاً قط أثبت في نفسي من فخ أنصبه بامرأة ، وإياك والشح ، فاني أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة .

وكان يقال : اتقوا الغضب ، فانه يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل ، والغضب عدو العقل .

وحقيقة الغضب : غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فمتى غضب الانسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلي به دم القلب ، وينتشر في العروق ، ويرتفع الى أعالي البدن ، كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة ، وكل ذلك يحكي لون ما وراءه من حمرة الدم ، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها ، وانما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه .

فان كان الغضب صدر ممن فوقه ، وكان معه يأس من الانتقام ، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب ، فصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب من نظير يشك فيه ، تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب ، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب .

والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث : إفراط ، وتفريط ، واعتدال .

فلا يحمد الإفراط فيها ، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما ، فلا يبقى للانسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار .

والتفريط في هذه القوة أيضاً مذموم ، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة ، ومن فقد الغضب بالكلية ، عجز عن رياضة نفسه ، إذ الرياضة إنما تتم بتسلط الغضب على الشهوة ، فيغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الخسيسة ، ففقد الغضب مذموم ، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطريقين .

واعلم : أنه متى قويت نار الغضب والتهبت ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، لأن الغضب يرتفع الى الدماغ ، فيغطي على معادن الفكر ، وربما تعدى الى معادن الحس ، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود الدنيا في وجهه ، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار ، فاسود جوه ، وحمي مستقره ، وامتلأ بالدخان ، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ ، فلا يثبت فيه قدم ، ولا تسمع فيه كلمة ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفاء النار ، فكذلك يفعل بالقلب والدماغ ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه .

ومن آثار الغضب في الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج

الأفعال عن الترتيب ، واستحالة الخلقة ، وتعاطي فعل المجانين ، ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال ، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم .

فصل في بيان الاسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب .

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها .

فمن أسبابه : العجب ، والمزاح ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضادّه ، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه .

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور :

أحدها : أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال ، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه ، فأذن له ، فقال له : يا ابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل[1] ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر رضي الله عنه ، حتى هن أن يُوقعَ به[2] . فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُر بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل .

الثاني : أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى ، وهو أن يقول : قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان ، فلو أمضيت فيه غضبي ، لم آمن أن يمضي الله عز وجل غضبه عليَّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى الله . وقد قال الله تعالى في بعض الكتب : يا ابن آدم ! اذكرني عند الغضب ، أذكرك حين أغضب ، ولا أمحقك فيمن أمحق .

---

(١) أي : الكثير من العطية ، يقال ، عطاء جزل وجزيل .

(٢) أي ينزل به ما يسوءه .

والثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو في هدم أعراضه ، والشماتة بمصائبه ، فان الانسان لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخف من الآخرة ، وهذا هو تسليط شهوة على غضب ، ولا ثواب عليه ، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة ، فيثاب على ذلك .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم ، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضاري ، والسبع العادي ، وأنه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم ، لتميل نفسه الى الاقتداء بهم .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الانتقام ، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان : إن هذا يحمل منك على العجز ، والذلة والمهانة ، وصغر النفس ، وتصير حقيراً في أعين الناس ، فليقل لنفسه : تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك ، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين .

وينبغي أن يكظم غيظه ، فذلك يعظمه عند الله تعالى ، فماله وللناس ؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي : ليقم من وقع أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ، فهذا وأمثاله ينبغي أن يقرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى ، لا على وفق مراده ، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى ، هذا ما يتعلق بالقلب .

وأما العمل ، فينبغي له السكون ، والتعوذ ، وتغيير الحال ، وإن كان قائماً جلس ، وإن كان جالساً اضطجع ، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب ، فهذه الأمور وردت في الأحاديث .

أما الحكمة في الوضوء عند الغضب ، فقد بينها في الحديث . كما روى أبو وائل قال : كنا عند عروة بن محمد ، فكلمه رجل بكلام ، فغضب غضباً شديداً ، فقام وتوضأ ، ثم جاء فقال : حدثني أبي عن جدي عطية ـ وكانت له صحبة ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق

من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » .

وأما الجلوس والاضطجاع ، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق ، فيذكر أصله فيذل ، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله ، لأن الغضب ينشأ من الكبر ، بدليل ما روى أبو سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر الغضب وقال : « من وجد شيئاً من ذلك ، فليلصق خده بالأرض »[1] .

وقيل : غضب المهدي على رجل ، فدعا بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه ، وإطراق الناس ، فلم يتكلموا بشيء ، قال : يا أمير المؤمنين ، لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

فصل في كظم الغيظ

قال الله تعالى : ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾[آل عمران : ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء » .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

فصل في الحلم

روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم »[2] .

« اطلبوا العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تُعَلِّمون ولمن

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخه » ١/ ١٢٧ وسنده حسن ، وله شاهد من حديث معاوية رواه الطبراني في « الكبير » كما في « المجمع » ١/ ١٢٨ وسنده حسن في الشواهد .

(٢) أخرجه احمد ٣/ ٦١ ، والترمذي (٢١٩٢) ضمن حديث مطول ، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف . لكن له طريق آخر يتقوى به أخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخه » ٩/ ١٢٧ بسند قابل للتحسين وشاهد بنحوه من حديث معاوية أخرجه الطبراني في « الكبير » كما في « المجمع » ١/ ١٢٨ وفي سنده رجل لم يسم .

تَعلَّمونَ منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فيغلبَ جهلُكم عليكم »[1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأشج بن قيس[2] : « إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة[3] » .

وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنه ، فلما قضى مقالته ، فقال : يا عكرمة ، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى .

وأسمع رجل معاوية كلاماً شديداً ، فقيل له : لو عاقبته ؟ فقال : إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي .

وقسم معاوية نطعاً[4] ، فبعث منها الى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه ، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية ، فأتى معاوية فأخبره ، فقال له معاوية : أوف بنذرك وارفق بالشيخ .

وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له ، فقال له : من كسر رجل هذه ؟ قال : أنا فعلته عمداً لأغيظك ، فتضربني ، فتأثم . فقال : لأغيظن من حرضك على غيظي ، فأعتقه .

وشتم رجل عدي بن حاتم وهو ساكت ، فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي ، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا .

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة ، فمر برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه وقال : أمجنون أنت ؟ فقال عمر : لا ، فهم به الحرس ، فقال عمر : مه ، إنما سألني أمجنون ؟ فقلت : لا .

ولقي رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما ، فسبه ، فثارت إليه العبيد ، فقال : مهلاً ، ثم أقبل على الرجل فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك

---

(١) قال الحافظ العراقي : رواه ابن السني في « رياضة المتعلمين » بسند ضعيف .

(٢) هذا لقبه ، واسمه : المنذر بن عائذ بن الحارث العصري بمهملتين مفتوحتين ، نزل البصرة ومات فيها .

(٣) الأناة : الترفق والتنظر .

(٤) جاء في « القاموس » النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك : بساط من الأديم .

عليها ؟ فاستحى الرجل ، فألقى عليه خميصة[1] كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسول .

وقال رجل لوهب بن منبه : إن فلاناً شتمك ، فقال : ما وجد الشيطان بريداً غيرك .

فصل في العفو والرفق

اعلم : أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتسقطه ، وتؤدي عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم والكظم . وقال الله تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال: ﴿ فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾[الشورى: ٤٠]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

وعن عقبة بن عامر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا عقبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة ؟ تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك »[2] .

وروي أن منادياً ينادي يوم القيامة : ليقم من وقع أجره على الله ؟ فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف » .

وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل يحب الرفق في الأمر كله » .

وفي حديث آخر « من يحرم الرفق يحرم الخير » .

---

(١) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان ، فان لم يكن معلماً فليس بخميصه .

(٢) قال الحافظ العراقي : رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » والبيهقي في « الشعب » باسناد ضعيف .

باب في الحقد والحسد

اعلم : أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن ، فاحتقن فيه فصار حقداً .

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه ، فالحقد ثمرة الغضب ، والحسد من نتائج الحقد .

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء »[1] .

وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، كونوا عباد الله إخواناً » .

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[2] » .

وفي حديث آخر أنه قال : « يطلع عليكم من هذا الفج[3] رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل ، فسئل عن عمله ، فقال : إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه » .

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول :

« الحاسد عدو نعمتي ، متسخط لقضائي ، غير راض بقسمتي بين عبادي » .

وقال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا ، وهو يصير الى الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا ، وهو يصير الى النار .

وقال إبليس لنوح عليه السلام : إياك والحسد ، فإنه صيرني الى هذه الحال .

---

(١) ضعيف أخرجه أحمد والترمذي عن الزبير بن العوام .

(٢) اخرجه ابن ماجه (٤٢١٠) من حديث أنس وفي سنده عيسى بن أبي عيسى الحناط وهو ضعيف ، وأخرجه بنحوه ابو داود (٤٩٠٣) .

(٣) الفج بالفتح : الطريق الواسع بين الجبلين ، والجمع فجاج .

واعلم : أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة ، فلك فيها حالتان :
إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، فهذا هو الحسد .

والحالة الثانية : أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها ، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها ، فهذا يسمى غبطة .

قال المصنف رحمه الله :

قلت : واعلم أني ما رأيت أحداً حقق الكلام في هذا كما ينبغي ، ولا بد لي من كشفه فأقول :

اعلم : أن النفس قد جبلت على حب الرفعة ، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها ، فإذا علا عليها ، شق عليها وكرهته ، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي ، وهذا أمر مركوز في الطباع . وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطِّيرة ، والحسد ، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ »[1] .

وعلاج الحسد ، تارة بالرضى بالقضاء ، وتارة بالزهد في الدنيا ، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة ، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً ، ولا ينطق ، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته .

فأما من يحسد نبياً على نبوته ، فيجب أن لا يكون نبياً ، أو عالماً على علمه ، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه ، فهذا لا عذر له ، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة ، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه ، ويطلع على ما لم يدركوه ، فإنه لا يأثم بذلك ، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم ، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه ، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما ، فأحب أحدهما أن يستبق . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦][2] .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل القرآن ، فهو يقوم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهري ، وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور .

(٢) يقال نافست في الشيء منافسة ، ونفاساً : إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم ، وتنافسوا فيه ، أي : رغبوا .

به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ،فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار » .

والحسد له أسباب :

أحدهـا : العداوة ، والتكبر ، والعجب ، وحب الرياسة ، وخبث النفس ، وبخلها ، وأشدها : العداوة والبغضاء ، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب ، وخالفه في غرضه ، أبغضه قلبه ، ورسخ في نفسه الحقد .

والحقد يقتضي التشفي والانتقام ، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك ، وظنه مكافأة من الله تعالى له ، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك ، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقي أن لا يبغي ، وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن .

وأما الكبر ، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية ، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره ، وأن يكون من أصاب ذلك دونه ، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته . وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريباً من ذلك . قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآن عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف : ٣١] وقال في حق المؤمنين : ﴿أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم من بَيْنَنَا﴾[الأنعام : ٥٣] وقال في آية أخرى : ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[يس : ١٥] وقال :﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُم إِنَّكُم إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾[المؤمنون : ٣٤] فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم .

وأما حب الرياسة والجاه ، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به ، من أنه أوحد العصر ، وفريد الدهر في فنه ، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم ، ساءه ذلك وأحب موته ، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم ، أو شجاعة ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو ثروة ، أو غير ذلك ، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد .

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم .

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله ، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة

ولا تكبر ، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به ، شق عليه ذلك ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم ، وتنغيص عيشهم ، فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته .

وقد قال بعض العلماء : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح الذي يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة ، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع ، وهذا معالجته شديدة ، لأنه ليس له سبب عارض ، فيعمل على إزالته ، بل سببه خبث الجبلة ، فيعسر إزالته ، فهذه أسباب الحسد .

فصل [في سبب كثرة الحسد]

واعلم : أنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها ، ويقع ذلك غالباً بين الأقران ، والأمثال ، والإخوة ، وبني العم ، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها ، فيثور التنافر والتباغض .

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، والإسكاف يحسد الإسكاف ، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر ، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر .

فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين ، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين ، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه ، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين ، وأما الآخرة ، فلا ضيق فيها ، فإن من أحب معرفة الله تعالى ، وملائكته ، وأنبياءه ، وملكوت أرضه وسماءه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين ، بل المعلوم الواحد يعرف ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته غيره ، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه ، وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ، ولا ضيق فيما عند الله ، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه ، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة . ولا يضيق بعض الناظرين على

بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم ، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا .

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى ، والعلم مستقر في قلب العالم ، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه ، ولا نهاية له ، فمن عوَّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه ، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم ، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل .

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء ، لأنها واسعة الأقطار ، وافية بجميع الابصار ، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه ، ولذة لا تتكدر ، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته ، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضاً ، فإن كنت لا تشتاق الى معرفة الله سبحانه ، ولم تجد لذتها ، وضعفت فيها رغبتك ، فلست برجل ، إنما هذا شأن الرجال ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ،ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقي من المحرومين .

واعلم : أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا ، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا ، بل ينتفع به ، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد ، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع ، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة .

وبيان قولنا : أن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا ، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا ، لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد أن تدوم الى أجله الذي قدره ، ولا ضرر عليه في الآخرة ، لأنه لا يأثم هو بذلك ، بل ينتفع به ، لأنه مظلوم من جهتك . لا سيما إذا أخرجت الحسد الى القول والفعل .

وأما منفعته في الدنيا ، فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء ، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد .

فاذا تأملت ما ذكرنا ، علمت أنك عدو لنفسك ، وهو صديق لعدوك ، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه ، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول ، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيرميه الثالثة ، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه ، وعدوه سالم يضحك منه ، فهذه الأدوية العلمية ، فإذا تفكر الانسان فيها ، أخمدت نار الحسد من قلبه .

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد ، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود ، كلف نفسه المدح له ، والثناء عليه ، وإن حمله الكبر ، ألزم نفسه التواضع له ، وإن بعثه على كف الإنعام عنه ، ألزم نفسه زيادة في الإنعام .

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم ، أهدوا إليه هدية .

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً ، إلا أنها مرة ، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد ، فأرد ما يكون ، وهذا هو الدواء الكلي ، والله أعلم .

باب في ذم الدنيا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِن ذَٰلِكُمْ ﴾ الآية [آل عمران : ١٤ - ١٥] ، وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية [يونس : ٢٤] ، وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، وقوله : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٥] ، وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم : ٢٩ - ٣٠] .

وأما الأحاديث ، ففي « الصحيحين » من رواية المسور بن شداد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع ؟ » .

وفي حديث آخر : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » رواه مسلم .

وفي حديث آخر : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » . رواه الترمذي وصححه .

وفي حديث آخر : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها »[1] .

وروى أبو موسى ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من أحب دنياه ، أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى »[2] .

وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه : أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل اليها آدم عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة ، وكن أسرَّ ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن ، ما نظر اليها منذ خلقها .

ولقد عرضت على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، وكره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، زواها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لاعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؟ ونسي ما صنع الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين شد على بطنه الحجر ، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مكر به ، إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها ، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه .

وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعني الدنيا .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » من حديث جابر بسند ضعيف ، لكن رواه ابن ماجه (٤١١٢) ، والترمذي (٢٣٢٣) من حديث أبي هريرة بلفظ « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالماً أو متعلماً » وسنده حسن ، وله شاهد من حديث ابن مسعود عند الطبراني في « الأوسط » .

(٢) رجاله ثقات لكنه منقطع أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم .

ومن أمثلة الدنيا : قال يونس بن عبيد : شبهت الدنيا كرجل نائم ، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب ، فبينما هو كذلك انتبه .

ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا .
والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا اليه وفرحوا به .

قيل : إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء[1] عليها من كل زينة . فقال لها : كم تزوجت ؟ قالت : لا أحصيهم . قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء[2] زرقاء أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ،فيقال: هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال : هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها ، وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم تقذف في جهنم ، فتنادي : يا رب اين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وعن أبي العلاء ، قال : رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة ، والناس عكوف عليها متعجبون ، ينظرون إليها ، فقلت : من أنت ويلك ؟ قالت : أما تعرفني ؟ قلت : لا ، قالت : أنا الدنيا . فقلت : أعوذ بالله من شرك . قالت : إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم .

وقال بعضهم : رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء .
مثال آخر : واعلم أن أحوالك ثلاث :
حال لم تكن فيها شيئاً ، وهي قبل أن توجد .

وحال أخرى ، وهي من ساعة موتك الى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي ، فإن لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك ، إما في الجنة أو النار ، وهو الخلود الدائم .
وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة ، وهي أيام حياتك في الدنيا ، فانظر الى مقدار

---

(١) ليس لها أسنان ، وفي نسخة : صماء ، وهي الداهية .
(٢) الشمط في الشعر : اختلافه بلونين من سواد وبياض ، أو بياض شعر الرأس يخالط سواده .

ذلك ، وانسبه الى الحالتين ، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا .

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق ، أو سعة ورفاهية ، ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال : « ما لي وللدنيا ؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ، قال[1] تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها . هذا مثل واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر الى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة .

ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفما كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها ، فهو في غاية الجهل والحمق .

وقيل : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً حتى يقتله .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم الى مزبلة فيقول : انظروا الى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر : روي عن الحسن قال : بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي ،أنفذوا الزاد وخسروا الظهر ، وبقوا بين ظهراني المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاء هذا إلا من قريب ، فلما انتهى اليهم قال : يا هؤلاء ، علام أنتم ؟ قالوا : على ما ترى . قال : أرأيتكم إن هديتكم الى ماء رواء ، ورياض خضر ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً . قال : عهودكم ومواثيقكم بالله . قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً . قال : فأوردهم ماءً ورياضاً خضراً ، فمكث فيهم ما شاء الله ، ثم قال : يا هؤلاء ، الرحيل . قالوا : الى أين ؟ قال : الى ماء ليس كمائكم ، والى رياض ليست كرياضكم ،فقال أكثر

(١) من القيلولة ، وهي النوم في الظهيرة .

القوم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة قليلة : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه ؟ وقد صدقكم في أول حديثه ، فوالله ليصدقنكم في آخره . قال : فراح فيمن اتبعه ، وتخلف بقيتهم ، فنزل عدو ، فأصبحوا بين أسير وقتيل »[1] .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا ، وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم . فصبَّحهم الجيش في مكانهم ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق » .

فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة الى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب .

وقد وضع الله في الطباع توقان النفس الى ما يصلحها ، فكلما تاقت منعوها ، ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلا بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر المتزهدين ، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

اعلم : أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للانسان ، فيها حظ ، وهي الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الآدمي ، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر الى الله عز وجل ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح ، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم ، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه ، لأنه يخرج عن النفع الى الأذى ، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ، ويرد لها الماء ، ويغير عليها

---

(١) هو مرسل ، ونسبه العراقي لابن أبي الدنيا .

ألوان الثياب ، وينسى أن الرفقة قد سارت ، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هي الوسطى ، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج اليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهىً ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها .

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه في السفر الفالوذج .

وكان ابراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات ، ويقول : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال .

ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته ، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا ، ولا تفريط في حقوق النفس .

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى ، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم ، والزهد فيه يكون .

باب في ذم البخل والحرص والطمع

وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء ، ونحو ذلك

اعلم : أن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي ، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حلّه ، أو حبسه عن حقه ، أو إخراجه في غير وجهه ، أو المفاخرة به ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إنما أَمْوَالُكُم وَأَوْلاَدُكُم فِتْنَةٌ ﴾[الانفال : ٢٨] .

وفي « سنن الترمذي » عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

وقد كان السلف يخافون من فتنة المال . وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول : ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبي بكر لشرٍّ أراده

الله بهما ، وأعطاه عمر إرادة الخير له .

وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل : ما رقيته ؟ قال : أخذه منْ حلّه ووضعه في حقه . وقال : مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما ، قيل : ما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله .

بيان في مدح المال

قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح ، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا ، وقد سماه الله تعالى خيراً ، وهو قوام الآدمي . قال الله تعالى في أول سورة النساء :﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ[1] أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾[النساء : ٥] .

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ، يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ، ويعطي منه حقه .

وقال أبو إسحاق السبيعي : كانوا يرون السعة عوناً على الدين .
وقال سفيان : المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين .

وحاصل الأمر ؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، فترياقه فوائده ،وغوائله سمه ، فمن عرف فوائده وغوائله ، أمكنه أن يحترز من شره ،ويستدر من خيره .

أما فوائده ، فتنقسم الى دنيوية ودينية :
أما الدنيوية ، فالخلق يعرفونها ، ولذلك تهالكوا في طلبها .
وأما الدينية ، فتنحصر في ثلاثة أنواع :

أحدها : أن ينفقه على نفسه ، إما في عبادة ، كالحج والجهاد ، وإما في الاستعانة على العبادة ، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة ، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة ، وما لا يتوصل الى العبادة إلا به ، فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ، ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فان ذلك من حظوظ الدنيا .

---

(١) السفه : ضد الحلم ، وأصله الخفة والحركة ، والسفيه : الجاهل ، ، والمراد هنا : الجهال بموضع النفقة من الرجال والنساء والصبيان .

النـوع الثانـي : ما يصرفه الى الناس ، وهو أربعة أقسام :

أحدها : الصدقة ، وفضائلها كثيرة مشهورة .

القسم الثاني : المروءة ، ونعني بها صرف المال الى الاغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك ، وهذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء .

القسم الثالث : وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب[1] السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، وكف شرهم ، فهو من الفوائد الدينية ، فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « وما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة »[2] . وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة ، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

القسم الرابع : ما يعطيه أجراً على الاستخدام ، فان الأعمال التي يحتاج اليها الانسان لمهنة أسبابها كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك ، ومن لا مال له يفتقر الى ان يتولى خدمة نفسه بنفسه ، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل بذلك غرضك ، فان تشاغلك به غبن ، لأن احتياجك الى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد .

النـوع الثالث : ما لا يصرفه الإنسان الى معين ، لكن يحصل به خيراً عاماً ، كبناء المساجد ، والقناطر ، والوقوف المؤبدة ، فهذه جملة فوائد المال في الدين ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة ، من الاخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والعز بين الخلق ، والكرامة في القلوب ، والوقار .

وأما غوائل المال وآفاته ، فتنقسم أيضاً الى دينية ودنيوية :

أما الدينية فثلاث فئات :

الأولى : أنه يجر الى المعاصي غالباً ، لأن من استشعر القدرة على المعصية ،

---

(١) يقال : ثلبه : يثلبه بكسر اللام ثلباً : إذا لامه وعابه وصرح بالعيب وقال فيه وتنقصه .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » من حديث جابر ، وصححه ، لكن الذهبي رده بقوله : عبد الحميد ضعفوه ، وقال في « الميزان » : غريب جداً ، وأورده الهيثمي في « المجمع » ٣/ ١٣٦ من حديث جابر ، ونسبه الى أبي يعلى ، وقال : وفي إسناده مسور بن الصلت وهو ضعيف .

انبعثت داعيته اليها .

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته الى المعاصي ، ومتى يئس الإنسان من المعصية ، لم تتحرك داعيته إليها .

ومن العصمة أن لا تجد ، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك ، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

الثانية : أنه يحرك الى التنعم في المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفاً ، فلا يصبر عنها ، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات ، ويترقى الى آفات من المداهنة والنفاق ، لأن من كثر ماله خالط الناس ، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة ، وكل ذلك من الحاجة الى إصلاح المال .

الثالثة : وهي التي لا ينفك عنها أحد ، وهو أن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى ، وهذا هو الداء العضال ، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى ، والتفكير في جلاله وعظمته ، وذلك يستدعي قلباً فارغاً .

وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم ، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء ، وأعوان السلطان في الخراج والاجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك .

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه ، وتقصيره في العمل ، وتضيعه المال .

وكذا سائر أصناف المال ، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه ، وفي الخوف عليه .

ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك ، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا ، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب .

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقي الى الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات .

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

واعلم : أن الفقر محمود ، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً ، منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت الى ما في أيديهم ، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس .

وقد روي في « صحيح مسلم » عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام : قد جربنا العيش كله ، لينه من شديده ، فوجدناه يكفي منه أدناه .

وفي حديث جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « القناعة مال لا ينفد »[1] .

وقال أبو حازم : ثلاث من كن فيه كمل عقله : من عرف نفسه ، وحفظ لسانه ، وقنع بما رزقه الله عز وجل .

وقرأ بعض الحكماء : أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة .

أما الحرص ، فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أيها الناس ، أجملوا في الطلب ، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له »

ونهى عن الطمع فقال : « اجمع اليأسَ مما في أيدي الناس »[2] .

وقال بعضهم : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ قال : الشك في المقدور ، ولو قيل له : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ، ولو قيل له : ما غايتك ؟ قال : الحرمان .

وقيل : الطمع يذل الأمير ، واليأس يعز الفقير .

---

(١) قال في « كشف الخفاء » : رواه الطبراني والعسكري عن جابر ، وكذا القضاعي عن أنس ، قال الحافظ الذهبي ، اسناده واه كثيراً .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) من حديث أبي أيوب ، وفي سنده عثمان بن جبير قال الذهبي في « الطبقات » : مجهول .

بيان علاج الحرص والطمع
والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان :

الصبر ، والعلم ، والعمل ، ومجموع ذلك خمسة أمور :

الاول : الاقتصاد في المعيشة ، والرفق في الإنفاق ، فمن أراد القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه الى ما لا بد منه ، فيقنع بأي طعام كان ، وقليل من الإدام ، وثوب واحد ، ويوطن نفسه على ذلك ، وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد الى هذا القدر .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما عال من اقتصد »[1] وفي حديث آخر : « التدبير نصف العيش »[2] . وفي حديث آخر : « ثلاث منجيات : خشية الله تعالى في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضى والغضب » .

الثانـــي : إذا تيسر له في الحـال ما يكفيه ، فلا يكون شديد الاضطـراب لأجـل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل ، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه ، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي ، أنه ليس من نفس تمـوت حتـى تستكمـل رزقهـا وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطـاء الـرزق أن تطلبـوه بمعاصي الله عز وجل ، فإنه لا يدرك عند الله إلا بطاعته » .

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه ، فإن في الحديث : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب »[3] .

الثالـــث : أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء ، وما في الطمع والحرص من الذل .

---

(١) قال العراقي : رواه احمد والطبراني من حديث ابن مسعود ، ومن حديث ابن عباس . وكلاهما ضعيف .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس ، وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين .

(٣) أخرجه الديلمي من حديث أبي هريرة من رواية عمر بن راشد ، وهو ضعيف جداً ، وقال البيهقي : ضعيف بالمرة ، وأورده ابن الجوزي في « الموضوعات » ، ورواه ابن حبان في « الضعفاء » من حديث علي باسناد واه .

وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول ، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة ، ومن لم يؤثر عزَّ نفسه عن شهوته ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان .

الرابع : أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم ، ثم ينظر الى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين ، ويسمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين مشابهة أرذال العالمين ، أو صفوة الخلق عند الله تعالى ، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير ، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه ، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفاداً[1] منه .

الخامس : أن يفهم ما في جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا في آفات المال ، وينظر الى ثواب الفقر ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً الى من دونه في الدنيا ، والى من فوقه في الدين ، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « انظروا الى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » .

عماد الأمر : الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم ، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء .

فصل [في لزوم القناعة لمن فقد المال]

ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا ، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف ، فإن السخاء أخلاق الأنبياء ، وهو أصل من أصول النجاة .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « قال جبريل عليه السلام : قال الله عز وجل : الإسلام دين ارتضيته لنفسي ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه »[2] .

وفي حديث آخر : عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) أي نزوا .

(٢) قال العراقي : رواه الدار قطني في المستجاد ، دون قوله « وحسن الخلق » بسند ضعيف ، ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » ، وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ، ويوسف ضعيف .

قال : « تجافوا عن ذنوب السخي ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر »[1] .

وفي حديث آخر : « الجنة دار الأسخياء ، وما جبل ولي الله إلا على السخاء »[2] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام ، ولكن دخلوها بسخاء النفس ، وسلامة الصدر ، والنصح للمسلمين »[3] .

وفي حديث آخر : « عليكم باصطناع المعروف ، فإنه يمنع مصارع السوء » .

وقال ابن السماك : عجبت ممن يشتري المماليك بماله ، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه ؟ !

ومن حكايات الأسخياء :

قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا . وأن رجلاً سأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى الرجل قومه ، فقال : يا قوم : أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

وقيل : كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج الى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك .

وجاء أعرابي الى طلحة ، فسأله ، وتعرف اليه برحم ، فقال : إن هذه الرحم ، ما سألني بها أحد قبلك ، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم .

وقال عروة : رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً ، وهي ترقع درعها .

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» والخرائطي في « مكارم الأخلاق » وقال : « أقيلوا السخي زلته » وفيه ليث ابن أبي سليم ، وهو ضعيف ، وزاد الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه باسناد ضعيف ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » من طريق الدارقطني .

(٢) قال العراقي : رواه ابن عدي والدارقطني في « المستجاد » والخرائطي ، قال الدارقطني : لا يصح ، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في « الموضوعات » وقال الذهبي : حديث منكر ، ما أفته سوى جحدر .

(٣) قال العراقي : رواه الدارقطني في المستجاد ، وأبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينوري ، أورد ابن عدي له مناكير ، وفي « الميزان » : انه ضعيف منكر الحديث ، وروى الخرائطي في « مكارم الاخلاق » من حديث أبي سعيد نحوه ، وفيه صالح المري ، متكلم فيه .

وروي أنها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية عليَّ فطوري ، فجاءتها بخبز وزيت : فقالت لها أم درة : أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ! ؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد . فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يبكون على دارهم ، قال : يا غلام : ائتهم ، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وبعث رجل الى عبد الله أنه قد وصف لي لبن البقر ، فابعث لي بقرة أشرب من لبنها . فبعث اليه بسبعمائة بقرة ورعاتها ، وقال : القرية التي كانت ترعى فيها لك .

ودخل علي بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه ، فجعل يبكي : فقال : ما شأنك ؟ قال : عليَّ دين ، قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار ، أو بضعة عشر ألف دينار . قال : فهي عليَّ .

وجاء رجل الى معن ، فسأله ، فقال : يا غلام : ناقتي الفلانية وألف دينار ، فدفعها اليه وهو لا يعرفه .

وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه ، فقال لبعض خدمه : إذا دخل الأمير البستان فعرِّفني ، قال : فلما دخل عرفه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، فلما بصر معن بالخشبة ، أخذها ، فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي فما لي الى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعا الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقاله ، فأمر له بعشر بدر[1] ، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ، وقرأ ما فيها ، ودعا الرجل ، فدفع اليه مائة ألف درهم أخرى ، فلما أخذها الرجل ، خاف أن يعود فيستعيدها منه ، فخرج ، فلما كان اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، فدعا الرجل فطلب فلم يوجد . فقال معن : حق عليَّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار .

---

(١) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .

ومرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له ، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ، ينادي : من كان عليه لقيس حق ، فهو منه في حل ، قال : فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده .

وقام رجل الى سعيد بن العاص يسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى ، فقال : سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكي على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

فصل في البخل وذمه

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق »[1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً » .

وفي أفراد مسلم ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل » .

وروى جابر رضي الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني سلمة : « من سيدكم ؟ قالوا : جد بن قيس على أننا نبخّله ، قال : وأي داء أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور » وهي أصح من ذكر عمرو بن الجموح ، وغلط بعض الرواة ، فقال : البراء بن معرور ، البراء مات قبل الهجرة .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

قال الخطابي : الشح في المنع أبلغ من البخل .

وقال سلمان الفارسي : إذا مات السخي ، قالت الأرض والحفظة : رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه ، وإذا مات البخيل قالت : اللهم احجب هذا العبد عن الجنة ،

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٨٢) والترمذي في « سننه » (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري وفي سنده صدقه بن موسى الدقيقي وهو ضعيف .

كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا .

وقال بعض الحكماء : من كان بخيلاً ورث ماله عدوه .
ووصف أعرابي رجلاً فقال : لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه .
وذم أعرابي قوماً فقال : يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش .

من حكايات البخلاء :

روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان الحاجب رجلاً من أجل العرب ، وكان بخيلاً ، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها ، فاذا احتاج الى إيقادها فأوقد ثم بصر بمستضيء بها أطفأها .

وقيل : كان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس ، فخرج يريد المهدي ، فقالت له امرأته : ما لي عليك إن رجعت بالجائزة ؟

قال : إن أعطيت مائة ألف درهم ، أعطيتك درهماً ، فأعطي ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق .

وقيل : كان بعض البخلاء موسراً كثير الأموال ، وكان ينظر في دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الحوائج ، ودعا حمالاً وقال : بكم تحمل هذه الحوائج ؟ قال : بحبة . قال : أبخس . قال ما أقل من حبة ؟ لا أدري ما أقول . قال : نشتري بالحبة جزراً ، فنجلس جميعاً فنأكله .

فصل في فضل الايثار وبيانه

اعلم أن السخاء والبخل درجات .

فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة اليه .

وأشد درجات البخل ، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ، ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل .

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة ، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة ، فالأخلاق عطايا يضعها الله عز وجل حيث يشاء .
وليس بعد الايثار درجة في السخاء . وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار ، فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٨] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة ، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه ، وحكايته مشهورة .

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وجماعة من بني المغيرة ، فأتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه .

أتي عكرمة بالماء فنظر الى سهيل بن عمرو ينظر اليه ، فقال : ابدأ بهذا ، ونظر سهيل الى الحارث ينظر اليه ، فقال : ابدأ بهذا ، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة ، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسي أنتم .

وأهدي الى الرجل من الصحابة رضي الله عنه رأس شاة ، فقال : إن أخي أحوج اليه مني ، فبعث به الى رجل ، فبعث به ذلك الى آخر ، حتى تداولته سبع أبيات ، فرجع الى الأول .

خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له ، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، فدنا من الغلام فرمى اليه قرصاً فأكله ، ثم رمى اليه قرصاً آخر فأكله ، ثم رمى إليه ثالث فأكله ، وعبد الله ينظر فقال : يا غلام ! كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ، قال : فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال : ما هي بأرض كلاب ، جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده ، قال : فما أنت صانع ؟ قال : أطوي يومي هذا ، فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء وهذا أسخى مني ، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات ، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له .

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان ، وأطفؤوا السراج ، وجلسوا للأكل ، فلما رفع الطعام ، إذا هو بحاله ، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه .

فصل [في حد البخل والسخاء]

وقد تكلم الناس في حد البخل والسخاء ، فذهب قوم الى أن حد البخل منع الواجب ، وأن من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخيل ، وهذا غير كافٍ ، فإن من لم يسلم الى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم ، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو تمرة فإنه

معدود من البخلاء ، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل .

فأما الواجب بالشرع ، فهو الزكاة ، ونفقة العيال .

وأما اللازم بطريق المروءة ، فهو ترك المضايقة ، والاستقصاء عن المحقرات ، فإن ذلك يستقبح ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص ، فقد يستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير ، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب ، فالبخيل الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع ، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة . ومن قام بواجب الشرع ، ولازم المروءة ، فقد تبرأ من البخل ، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك .

قال بعضهم : الجواد : هو الذي يعطي بلا منٍّ . وقيل : هو الذي يفرح بالإعطاء .
فأما علاج البخل ، فاعلم أن سبب البخل حب المال .

ولحب المال سببان :

أحدهما : حب الشهوات التي لا وصول اليها إلا بالمال مع طول الأمل ، وإن كان قصير الأمل وله ولد ، فإنه يقوم مقام طول الأمل .

الثاني : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ، ويفضل معه آلاف ، ويكون شيخاً لا ولد له ، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه ، ولا بصدقة تنفعه ، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه ، أو ضاع إن كان مدفوناً ، وهذا مرض لا يرجى علاجه .

ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً ، فلما جاء رسوله ، أحب الرسول ونسي محبوبه واشتغل بالرسول ، فإن الدنيا رسول مبلغ الى الحاجات ، فيحب الدنانير لذاتها ، وينسى الحاجات ، وهذا غاية الضلال .

واعلم : أن علاج كل علة بمضادة سببها .
فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر ، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت .

ويعالج التفات القلب الى الولد ، بأن من خلقه خلق معه رزقه ، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث .

فليحذر أن يترك لولده الخير ، ويقدم على الله بشر ، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه ، وإن فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصي ، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء .

واعلم : أنه إذا كثرت المحبوبات في الدنيا ، كثرت المصائب بفقدها ، فمن عرف آفة المال لم يأنس به ، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته ، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل ، والله أعلم .

***

obeikandl.com

كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول وغير ذلك

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية » . وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء ، فضلاً عن عامة العباد ، وإنما يبتلى بها العلماء والعُبّاد المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فانهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات ، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات ، لم تطمع في المعاصي الظاهرة ، الواقعة على الجوارح ، فاستراحت الى التظاهر بالعلم والعمل ، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم اليها بعين الوقار والتعظيم ، فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة ، فاحتقرت فيها ترك المعاصي ، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عزّ وجل ، وقد أثبت في ديوان المنافقين ، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون .

ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة ، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين ، الذي هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول في سببه ، وحقيقته ، وأقسامه .

اعلم : أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار ، وذلك خطر عظيم ، والسلامة في الخمول . وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة ، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها ، فان وقعت من قبل الله تعالى ، فرُّوا عنها ، وكانوا يؤثرون الخمول ، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله ، فتبعه جماعة ، فالتفت إليهم وقال : علام تتبعوني ؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان .

وفي لفظ آخر أنه قال : ارجعوا ، فانه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

وكان أبو العالية رحمه الله إذا جلس اليه أكثر من أربعة قام .

وكان خالد بن معدان رحمه الله إذا عظمت حلقته ، قام وانصرف كراهة الشهرة .

وقال الزهري رحمه الله : ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال ، فاذا نوزع الرياسة ، حامى عليها وعادى .

قال رجل لبشر الحافي رحمه الله : أوصني ، فقال : أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك . وقال : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس .

وقد روي في « صحيح مسلم » أن عمر بن سعد انطلق الى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة ، فلما رآه قال : أعوذ بالله من شر هذا الراكب ، فلما أتاه قال : يا أبت أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم ؟ فضرب سعد في صدره وقال : اسكت ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من الصلاة ، أحسنَ عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضاً في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر على ذلك » ثم نقر بيده ، فقال : « عُجِّلَتْ منيَّتُه ، قلَّت بواكيه ، قلَّ تراثه » حديث حسن .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يوصي أصحابه ، فيقول : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت،سرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تُعرفون في السماء ، وتَخْفَوْنَ على أهل الأرض .

فان قيل : هذا فيه فضيلة الخمول ، وذم الشهرة ، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء ، وأئمة العلماء .

قلنا : المذموم طلب الإنسان الشهرة ، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم ، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء ، فان مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة ، اذا تعلق به أحد غرق وغرقه ، فأما السابح النحرير ، فان تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم .

فصل [في أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا]

واعلم : أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها ، وطاعتها ، والتصرف فيها .

فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس ، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هذا الشخص ، إما من علم أو عبادة ، أو نسب أو قوة ، أو حسن صورة ، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالاً فبقدر ما يعتقدون له من ذلك ، تذعن قلوبهم لطاعته ، ومدحه وخدمته ، وتوقيره .

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع ، وأنه أبلغ من حب المال ، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه ، بل لكونه وسيلة الى المحبوبات ، فاشتراك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة ، والجاه في ذلك أرجح من المال .

واعلم : أن من الجاه ما يحمد وما يذم ، لأن من المعلوم أنه لا بد للانسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما ، فكذلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، لأن الانسان لا يخلو من الحاجة الى سلطان يحرسه ، ورفيق يعينه ، وخادم يخدمه ، فحبه ذلك ليس بمذموم ، لأن الجاه وسيلة الى الأغراض ، كالمال .

والتحقيق في هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح ، كقول يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته ، كان ذلك مباحاً ، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه ، كالعلم ، والورع ، والنسب ، فذلك محظور .

وكذلك لو حسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع ، فانه يكون مرائياً بذلك ، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير ، ولا تملك المال بتلبيس .

بيان علاج حب الجاه

اعلم : أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصورَ الهمِّ على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتردد إليهم ، والمرآة لهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً الى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق ، وأصل الفساد ، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم باظهار ما هو خال عنه ، ويجر ذلك الى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات ، والتوصل الى اقتناص القلوب .

ولذلك شبّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين أرسلا في غنم .

فحب الجاه إذاً من المهلكات ، يجب علاجه ، وعلاجه مركب من علم وعمل ، أما الأول ، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه ، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم ، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت ، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا ، من تطرق الحسد إليهم ، وقصدهم بالايذاء ،فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم ، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب .

والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانها ، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة ، مكدرة لحفظ الجاه ، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها ، فضلاً عما يفوت في الآخرة ، فهذا من حيث العلم .

وأما العلاج من حيث العمل ، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك ، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد ، فلما قرب منه ، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً ، وجعل يأكل بشره ، ويعظم اللقمة فلما نظر اليه الملك سقط من عينه .

ولما أريد إبراهيم النخعي على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد في السوق .

واعلم : أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم ، فاذا خاف من تلك الفتنة ، فليخالطهم على وجه السلامة ،وليمش في الأسواق ، وليشتر حاجته ويحملها ، وليقطع طمعه من دنياهم ، وقد تم مراده .

وكان بشر الحافي يجلس الى عطار ، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم .

فصل [في عدم الاكتراث بذم الناس]

واعلم : أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس ، وحب مدحهم ، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس ، رجاء المدح ، وخوفاً من الذم ، وذلك من المهلكات ، فوجبت معالجته .

وطريق ذلك أن ننظر الى الصفة التي مدحت بها ، إن كانت موجودة فيك فلا

يخلو : إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع ، أو مما لا يصلح أن يفرح به ، كالجاه والمال .

أما الأول ، فينبغي أن يحذر من الخاتمة ، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح ، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس .

وأما القسم الثاني ، وهو المدح بسبب الجاه والمال ، فالفرح بذلك ، كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريب هشيماً ، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله ، وإن كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون .

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان ، فلا ينبغي أن تفرح به ، بل تكرهه ، كما كان السلف يكرهونه ، ويغضبون على فاعله .

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح ، فإنه ضده ، والقول الوجيز فيه أن من ذمك ، إما أن يكون صادقاً فيما قال ، قاصداً للنصح لك ، فينبغي أن تتقلد منته ، ولا تغضب ، فإنه قد أهدى اليك عيوبك ، وإن لم يقصد بذلك النصح ، فإنه يكون قد جنى هو على دينه ، وانتفعت بقوله ، لانه عرَّفك ما لم تكن تعرف ، وذكَّرك من خطاياك ما نسيت ، وإن افترى عليك بما أنت منه بريء ، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء :

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله ، فما ستر الله عزَّ وجل عليك من عيوبك أكثر ، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء .

الثاني : أن ذلك كفارات لذنوبك .

الثالث : أنه جنى على دينه ، وتعرض لغضب الله عليه ، فينبغي أن يسأل الله العفو عنه ، كما روي أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم ، فدعا له بالمغفرة وقال : صرت مأجوراً بسببه ، فلا أجعله معاقباً بسببي ، وقد تقدمت هذه الحكاية في فضل الحلم .

القسم الثاني من الكتاب

في بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ونحو ذلك

وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِم سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾[الماعون : ٤ ـ ٦] وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[الكهف : ١١٠]

وأما الأحاديث ، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما يرويه عن ربه عزَّ وجل أنه قال : « من عمل عملاً أشرك فيه غيري ، فهو للذي أشرك ، وأنا منه بريء » .

وفي حديث آخر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : يا رسول الله : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ، يقول الله عزَّ وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، هل تجدون عندهم خيراً » .

وقال بشر الحافي : لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إليَّ من أن أطلبها بالدين .

واعلم : أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، فالمرائي يرى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام :

الأول : الرياء في الدين ، وهو أنواع :

أحدها : أن يكون من جهة البدن ، باظهار النحول والصفار ، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد ، وغلبة خوف الآخرة ، وكذلك يرائي بتشعث الشعر ، ليظهر أنه مستغرق في هم الدين ، لا يتفرغ لتسريح شعره .

ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، ولهذا قال عيسى بن مريم عليه السلام : إذا صام أحدكم

فليدهن رأسه ، ويرجل شعره . وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء ، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين .

وأما أهل الدنيا ، فيراؤون باظهار السمن ، وصفاء اللون ، واعتدال القامة ، وحسن الوجه ، ونظافة البدن .

النوع الثاني : الرياء من جهة الزي ، كالإطراق حالة المشي ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشمير الثياب كثيراً ، وتقصير الأكمام ، وترك الثوب محرقاً غير نظيف .

ومن ذلك لبس المرقعة ، والثياب الزرق ، تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من صفاتهم في الباطن .

ومنه التقنع فوق العمامة ، لتنصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة .

وهؤلاء طبقات ، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح ، باظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة ، ليرائي بذلك ، ولو كلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه ، لكان عنده بمنزلة الذبح ، لخوفه أن يقول الناس : قد بدا له من الزهد ، وقد رجع عن تلك الطريقة .

وطبقة أخرى : يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار ، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح ، ولو لبسوا المخرقة الدنية لازدرتهم الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فيطلبون الأثواب الرقيقة ، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها ، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء ، فيلتمسون القبول عند الفريقين .

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفاً من السقوط في أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك ، لعظم

ذلك عليهم ، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح ، وكل مراء بزي مخصوص ثقل عليه الانتقال الى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الحسنة ، وأنواع التجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت ، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة .

النوع الثالث : الرياء بالقول ، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل المحاورة ، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس ، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك .

وأما أهل الدنيا ، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في الكلام ونحو ذلك .

النوع الرابع : الرياء بالعمل ، كمرآة المصلي بطول القيام ، وتطويل الركوع والسجود ، وإظهار الخشوع ، ونحو ذلك .

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم ، بالتبختر ، والاختيال ، وتحريك اليدين ، وتقريب الخطى ، والأخذ بأطراف الذيل ، وإمالة العطفين ، ليدلوا بذلك على الحشمة .

النوع الخامس : المراءاة بالأصحاب والزائرين ، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً ، ليقال : إن فلاناً قد زار فلاناً ، وإن أهل الدين يترددون إليه ، ويتبركون به ، وكذلك من يرائي بكثرة الشيوخ ، ليقال : لقي شيوخاً كثيرة ، واستفاد منهم ، فيباهي بذلك ، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون ، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد .

ومنهم من يطلب مجرد الجاه ، وكم من عابد اعتزل في جبل ، وراهب انزوى الى دير ، مع قطع طمعهم من مال الناس ، لكنه يحب مجرد الجاه .

ومنهم من يكون قصده المال ، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت .
فإن قيل : هل الرياء حرام ، أم مكروه ، أم مباح ؟

فالجواب : أن فيه تفصيلاً ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، او بغيرها ، فان كان الرياء بالعبادات ، فهو حرام ، فان المرائي بصلاته وصدقته وحجته ، ونحو ذلك ، عاص آثم ، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده ، فالمرائي بذلك في سخط الله .

وأما إن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال على ما تقدم ، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الانسان محمود ، فكذلك الجاه ، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف : ٥٥] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر ، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا في المال .

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال ، فلا ضرر فيه ، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلماء الدين بعده ، ولكن انصراف الهمم الى طلب الجاه نقصان في الدين ، ولا يوصف بالتحريم .

وتحسين الثوب الذي يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس ، إنما هو ليراه الناس ، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال : إنه منهي عنه .

وقد تختلف المقاصد بذلك ، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال .

وفي أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، فقال رجل : إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنة ، ونعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك .

فصل [في أن أبواب الرياء بعضها أشد من بعض]

واعلم : أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض ، لأنه درجات .

أشدها وأغلظها أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً ، كالذي يصلي بين الناس ، ولو انفرد لم يصل .

الدرجة الثانية : أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله ، فهو قريب من القسم الأول في كونهما ممقوتين عند الله تعالى .

الثالثة : أن يكون قصد الرياء ، وقصد الثواب متساويين ، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ، ولا يسلم من الاثم .

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه ، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة ، فهذا يثاب على قصده الصحيح ، ويعاقب على قصده الفاسد ، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها ، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحظور ، لأنه يتضمن تعظيم الخلق ، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات .

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي .

فالجلي : هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه .

وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بمجرده ، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه . وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل ، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب ، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أنه يسر باطلاع الناس على طاعته ، فرب عبد مخلص يخلص العمل ، ولا يقصد الرياء بل يكرهه ، ويتم العمل على ذلك ، لكن إذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، فهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب الى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فيعلم أن الرياء كان مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر ، فأظهر منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك بكراهة ، بل قد يتحرك حركة خفيفة ، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح .

وقد يخفى ، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً ، ولكن بالشمائل كاظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد .

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه ، ويسامحوه في المعاملة ، ويوسعوا له المكان ، فان قصر في ذلك مقصر ، ثقل ذلك على قلبه ، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها .

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق ، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء ، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر ، ولا يسلم منه الا الصدّيقون .

وقد روينا عن وهب بن منبه ، أن رجلاً من العبّاد قال لأصحابه : إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، وأنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم ، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن كان له حاجة أحبَّ أن تقضى لمكان دينه : وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم ، فركب في موكبه ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ، فقال العابد : ما هذا ؟ قيل : هذا الملك ، فقال لصاحبه : ائتني بطعام . فأتاه

ببقل وزبيب وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ فقالوا : هذا ، فقال : كيف أنت ؟ قال : كالناس ، فقال الملك : ما عند هذا خير ، وانصرف عنه ، فقال : الحمد لله الذي صرفه عني وهو لي لائم .

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي ، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة باخلاصهم .

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع ، ففيه شعبة من الرياء ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل ، بل فيه تفصيل .

فإن قيل : فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فهل جميع ذلك مذموم ؟

فالجواب : أن السرور ينقسم الى محمود ومذموم .

فالمحمود : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله ، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به ، حيث كان يستر الطاعة والمعصية ، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة ، وستر عليه المعصية ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح ، وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بذلك ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم ، أو يستدل باظهار الله الجميل ، وستر القبيح عليه في الدنيا ، أنه كذلك يفعل به في الآخرة ، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث .

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم ، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه ، فهذا مكروه مذموم .

فإن قيل : فما وجه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا اطلع عليه ، أعجبه ، فقال : « له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » .

فالجواب : أن هذا الحديث ضعيف ، وقد رواه الترمذي ، وفسره بعض اهل العلم بأن معناه : أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير ، لقوله عليه السلام : « أنتم شهداء الله في الأرض » .

وقد روي في أفراد مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » .

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه ، فهذا رياء .

فصل في بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا ورد على العبد وارد الرياء ، فلا يخلو :

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله ، فان ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير اظهار منه ، فهذا لا يحبط العمل ، لأنه قد تم على نعت الاخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده ، لا سيما اذا لم يتكلف هو اظهاره والتحدث به ، فأما ان تحدث به بعد تمامه وأظهره ، فهذا مخوف ، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء ، فإن سلم من الرياء نقص أجره ، فان بين عمل السر والعلانية سبعين درجة .

وأما إذ ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة ، كالصلاة التي عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور ، لم يؤثر في العمل ، وإن كان رياء باعثاً على العمل ، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه ، فهذا يحبط الأجر .

وأما ما يقارن العبادة ، مثل أن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء ، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها ، وإن ندم فيها على فعله ، فالذي ينبغي له أن يبتدئها ، والله أعلم .

باب في دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب لمقت الله تعالى ، وأنه من المهلكات ، ومن هذا حاله ، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته .

وفي معالجته مقامان :

أحدهما : في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه .

والثاني : في دفع ما يخطر منه في الحال .

المقام الأول : اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة ، وإذا فصل ، رجع الى ثلاثة أصول .

وهي حب لذة الحمد ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما في أيدي الناس .

ويشهد لذلك ما في « الصحيحين » من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » .

فمعنى قوله : « يقاتل شجاعة » أي : ليذكر ويحمد ، ومعنى قوله : « يقاتل حمية » أي : يأنف أن يقهر أو يذم ، ومعنى : « يقاتل رياء » أي : ليرى مكانه ، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب .

وقد لا يشتهي الانسان الحمد ، ولكنه يحذر من الذم ، كالجبان بين الشجعان ، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم . وقد يفتي الانسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل ، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك الى الرياء .

وعلاجه أن الانسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع ، إما في الحال أو المآل ، فإن علم أنه لذيذ في الحال ضارٌّ في المآل ، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة ، كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان أن فيه سماً ، أعرض عنه ، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرَّة ، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه ، ومن المنزلة في الآخرة ، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإنَّ رضى الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ومن طلب رضاهم في سخط الله ، سخط الله عليه وأسخطهم عليه . ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم ؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته . وكذلك ذمهم لمَ يحذر منه ؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، فإن العباد كلهم عجزة ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فإذا قرر هذا في نفسه ، فترت رغبته في الرياء ، وأقبل على الله تعالى بقلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه .

وأما الطمع فيما في أيدي الناس ، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ،وأنه لا رازق سواه ، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد ، لم يخل من المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد .

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال ، وذلك يشق في بداية المجاهدة ، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف ، سقط عنه ثقله ، وأمده الله بالعون ، فعلى العبد المجاهدة ، ومن الله التوفيق .

المقام الثاني : في دفع العارض من الرياء أثناء العبادة ، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً ، فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس ، واحتقار مدحهم وذمهم ، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها ، دفع ذلك بأن يقول : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ، فأي فائدة في علم غيره ؟

فإن هاجت الرغبة الى آفة الحمد ، ذكَّرها آفات الرياء والتعرض للمقت ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت ، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة .

فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب ، وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول ، فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء ، وترغيب الناس في الخير .

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد .

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه ، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي ، بل ينوي الاقتداء به ، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك ، فان مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر الى جماعة من الغرقى فرحمهم ، وأقبل

عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك معهم .

فأما من قوي وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، فلا بأس بالاظهار له ، لأن الترغيب في الخير خير .

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم ، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر : لا تبكوا عليَّ ، فاني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت .

وقال أبو بكر بن عياش رحمه الله لابنه : إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة ، فاني ختمت فيها اثنتي عشرة ألف ختمة .

ونحو ذلك كثير من كلامهم ، والله أعلم .

وأما الرخصة في كتمان الذنوب ، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء ، وليس كذلك فان الصادق] الذي لا يرائي إذا وقعت منه معصية ، كان له سترها ، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات ، فليستتر بستر الله عز وجل »[1] .

فهذا وإن عصى بالذنب ، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله عز وجل ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان .

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ، فهذا أثر الصدق فيه .

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له ، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فان الطبع يتأذى بالذم ، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر ، فان هذا أيضاً من قوة الإيمان .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٣ من حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألم بشيء منها ، فليستتر بستر الله ، وليتب الى الله ، فانه من يبدلنا صفحته ، نقم عليه كتاب الله تعالى » واسناده صحيح ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

فصل [في ترك الطاعات خوفاً من الرياء]

فأما ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، فان كان الباعث له على الطاعة غير الدين ، فهذا ينبغي أن يترك ، لأنه معصية لا طاعة فيه .

وإن كان الباعث على ذلك الدين ، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً ، فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأن الباعث الدين .

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال : إنه مراء ، فلا ينبغي ذلك ، لأنه من مكائد الشيطان .

قال إبراهيم النخعي : إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال : إنك مراء ، فزدها طولاً .

وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء . كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال : لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة ، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا .

فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

قد يبيت الرجل مع المتهجدين ، فيصلون أكثر الليل ، وعادته قيام ساعة ، فيوافقهم ، أو يصومون فيصوم ، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط .

فربما ظن ظان أن هذا رياء ، وليس كذلك على الاطلاق ، بل فيه تفصيل ، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى ، ولكن تعوقه العوائق ، وتستهويه الغفلة ، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق ، فان الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته ، فاذا بات في مكان غريب ، اندفعت هذه الشواغل ، وحصلت له أسباب تبعث على الخير ، منها مشاهدة العابدين .

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم ، بخلاف غيره ، ففي مثل هذه الأحوال يندب الشيطان للصد عن الطاعة ، ويقول : إذا عملت غير عادتك كنت مرائياً ، فلا ينبغي أن يلتفت اليه ، وإنما ينبغي أن ينظر الى قصده الباطن ، ولا يلتفت الى وسواس الشيطان .

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه ، فان رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله ، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء ، وقس على هذا .

فهذه جملة آفات الرياء ، فكن بحاثاً عنها ، وتفقد نيتك ، فان الرياء أخفى من دبيب النمل .

وينبغي للمريد أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته .

وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه ، ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء ، وأنا من المخلطين ، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص ، لأن المخلط الى ذلك أحوج .

قال ابراهيم بن أدهم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان . دخلت على صومعته فقلت له : منذ كم أنت في صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : ما طعامك ؟ قال : كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الذين بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : انهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك ، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ، ذكرتها عزّ تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد ، فوقّر في قلبي المعرفة ، فقال : أزيدك ؟ قلت : نعم ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى إليّ ركوة فيها عشرين حمصة ، ثم قال لي : ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت اليك ، فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى فقالوا : يا حنيفي ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : شيئاً من قوته . قالوا : وما تصنع به ؟ نحن أحق به ، ساوم به . قلت : عشرون ديناراً ، فأعطوني عشرين ديناراً ، فرجعت الى الراهب ، فقال : أخطأت ، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك ، هذا عز من لا يعبده ، فانظر كيف يكون عز من يعبده ، يا حنيفي أقبل على عبادة ربك .

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عزّ العظمة في القلوب يكون باعثاً الى الخلوة ، فهذه آفة عظيمة ، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره ، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله ، والله تعالى أعلم .

* * *

كتاب ذم الكبر والعجب

وهما فصلان :

الفصل الأول في الكبر :

قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] وقال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل : ٢٣] .

وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » .

وفي « الصحيحين » عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « قالت النار : أوثرت بالمتكبرين » .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يحشر الجبَّارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر ، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عز وجل » .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : من كانت معصيته في شهوة ، فارج له التوبة ، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له ، فإذا كانت معصيته من كبر ، فاخش عليه اللعنة ، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعنَ .

وفي « الصحيحين » : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إنَّ أحدَ شقَّي إزاري ليسترخي ، إلا أن أتعاهد ذلك منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لست ممن يصنعه خيلاء » .

واعلم : أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هي ثمرته ، فيظهر على الجوارح ، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه ، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً .

وبهذا ينفصل عن العجب ، فان العجب لا يستدعي غير المعجب ، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه ، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام ، حقر من دونه وازدراه ، وصفة هذا المتكبر ، أن ينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير استجهالاً واستحقاراً .

وآفة الكبر عظيمة ، وفيه يهلك الخواص ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء .

وكيف لا تعظم آفته ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر .

وإنما صار حجاباً دون الجنة ، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين ، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، فلا يقدر على التواضع ، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب ، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح ، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم . فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر اليه .

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له .

وقد تحصل المعرفة للمتكبر ، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل : ١٤] ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[المؤمنون : ٤٧] ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[ابراهيم : ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا ، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله .

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم ، وذلك أيضاً يدعو الى التكبر على أمر الله تعالى ، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود .

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكبر فقال : « الكبر : بطر الحق وغمط الناس » . ومعنى غمط الناس : الازدراء بهم ، واستحقارهم . ويروى : غمص الناس بمعنى غمط الناس .

فصل [في تقسيم آفات الكبر]

واعلم : أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة ، إلا أنه قد قطع أغصانها .

الثانية : أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، والإنكار على من يقصر في حقه ، فترى العالم يصعر[1] خده للناس ، كأنه معرض عنهم ، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم ، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، حين قال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

الدرجة الثالثة : أن يظهر الكبر بلسانه ، كالدعاوى والمفاخر ، وتزكية النفس ، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره ، وكذلك التكبر بالنسب ، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً .

قال ابن عباس : يقول الرجل للرجل : أنا أكرم منك ، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات : ١٣] .

وكذلك التكبر بالمال ، والجمال ، والقوة ، وكثرة الأتباع ، ونحو ذلك ، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم .

والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء ، ويدعوهن الى التنقص والغيبة وذكر العيوب .

وأما التكبر بالأتباع والأنصار ، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود ، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين .

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً ، فإن لم يكن في نفسه كمالاً ، أمكن أن

---

(١) صعر خده وصاعره : أي أماله من الكبر ، ومنه قوله تعالى (ولا تصعر خدك للناس) وقول المتلمس :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من خده فتقوما .

يتكبر به ، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور ، لظنه أن ذلك كمال .

واعلم : أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان ، كصَعَر وجهه ، ونَظَره شزراً ، وإطراق رأسه ، وجلوسه متربعاً ومتكئاً ، وفي أقواله ، حتى في صوته ونغمته ، وصيغة إيراده الكلام ، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبختره ، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته .

ومن خصال المتكبر : أن يحب قيام الناس له .

والقيام على ضربين :

قيام على رأسه وهو قاعد ، فهذا منهي عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين .

الثاني : قيام عند مجيء الإنسان ، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك .

قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك .

وقد قال العلماء : يستحب القيام للوالدين والإمام العادل ، وفضلاء الناس ، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل ، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه ، لم يأمن أن ينسبه الى إهانته ، والتقصير في حقه ، فيوجب ذلك حقداً .

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك ، ويرى أنه ليس بأهل لذلك .

ومن خصال المتكبر : أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه .

ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس .

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد الى جانبه أو مشيه معه .

وقد روى أنس رضي الله عنه قال : كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتنطلق به في حاجتها .

وقال ابن وهب : جلست الى عبد العزيز بن أبي روّاد ، وإن فخذي لتمس فخذه

فنحيت نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرني اليه وقال : لمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف منكم رجلاً شرّاً مني ؟ !

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته ، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه الى بيته ، وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وحمله . وكان أبو بكر رضي الله عنه يحمل الثياب الى السوق يتجر فيها . واشترى عمر رضي الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله الى بيته . واشترى علي رضي الله عنه تمراً فحمله في ملحفة ، فقال له قائل : أحمل عنك ؟ قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

وأقبل أبو هريرة رضي الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب ، وهو يومئذ خليفة مروان ، فقال لرجل : أوسع الطريق للأمير .

ومن أراد أن ينفي الكبر ، ويستعمل التواضع ، فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب « آداب المعيشة » .

* * *

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم : أن الكبر من المهلكات ، ومداواته فرض عين ، ولك في معالجته مقامان :

الأول : في استئصال أصله وقطع شجرته ، وذلك بأن يعرف الانسان نفسه ويعرف ربه ، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب ، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فقد صار شيئاً مذكوراً ، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس ولا يتحرك ، فقد ابتدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبفقره قبل غناه .

وقد أشار الله تعالى الى هذا بقوله : ﴿ من أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ من نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : ١٨ و ١٩] ثم امتن عليه بقوله : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾[عبس : ٢٠] ، وبقوله :

﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعَاً بَصِيراً ﴾[الدهر : ٢] فأحياه بعد الموت ، وأحسن تصويره ، وأخرجه الى الدنيا ، فأشبعه وأرواه ، وكساه وهداه وقوّاه .

فمن هذا بدايته ، فأي وجه لكبره وفخره ؟

على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق ، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة ، والأمراض الهائلة ، بينما بنيانه قد تم ، إذ هو قد وهى وتهدم ، لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بينما هو يذكر الشيء فينساه ، ويستلذ الشيء فيرديه ، ويروم الشيء فلا يناله ، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة .

هذا أوسط حاله ، وذاك أول أمره ، وأما آخر أمره ، فالموت الذي يعده جماداً كما كان ، ثم يلقى في التراب فيصير جيفة منتنة ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، ويأكل الدود أجزاؤه ، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة ، ويحضر عرصة القيامة ، فيرى أرضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، وسماءً منشقة ، ونجوماً منكدرة ، وشمساً مكوّرة ، وأحوالاً مظلمة ، وجحيماً تزفر ، وصحائف تنشر ، ويقال له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[الاسراء : ١٤] . فيقول : وما كتابي ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل ، من قليل وكثير ، وقيام وقعود ، وأكل وشرب ، وقد نسيت ذلك ، وأحصاه الله تعالى ، فهلم الى الحساب عليه ، وأعد جواباً له ، وإلا فأنت تساق الى النار ، فما لمن هذه حاله التكبر ؟ فإن صار الى النار ، فالبهائم أحسن حالاً منه ، لأنها تعود الى التراب ، ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه ، كيف يتكبر ؟ ! ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة ، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط ، فحبس في السجن ليخرج فيعاقب ، وهو منتظر أن يدعى به لذلك . أفتراه يتكبر على أهل السجن ؟ وهل الدنيا إلا سجن ، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب ؟

وأما معرفة ربه ، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته ، فتلوح له العظمة ، وتظهر له المعرفة ، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر .

ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده ، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين ، وقد تقدمت الإشارة الى طريقة رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم ، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة .

المقام الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأنساب ، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ، ثم يعلم أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وأباه البعيد تراب ، ومن اعتراه الكبر بالجمال ، فلينظر الى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر الى ظاهره نظر البهائم ، ومن اعتراه من جهة القوة ، فليعلم أنه لو آلمه عرق ، عاد أعجز من كل عاجز ، وإن حُمّى يوم تُحَلِّحلُ من قوّته ما لا يعود في مدة ، وان شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته ، وبقة لو دخلت في أذنه لأقلقته .

ومن تكبر بسبب الغنى ، فإذا تأمل خلقاً من اليهود ، وجدهم أغنى منه ، فأفٌ لشرف تسبق به اليهود ، ويستلبه السارق في لحظة ، فيعود صاحبه ذليلاً .

ومن تكبر بسبب العلم ، فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل ، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره .

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق بالله سبحانه ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده . وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع .

واعلم : أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط :
فطرفه الذي يميل الى الزيادة تكبراً
وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة .

والوسط يسمى تواضعاً ، وهو المحمود ، وهو أن يتواضع من غير مذلة ، فخير الأمور أوساطها ، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر ، ومن تأخر عنهم ، فهو متواضع ، لأنه قد وضع شيئاً من قدره ، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه ، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ، ثم قدم له نعله ومشى معه الى الباب ، فقد تخاسس وتذلل ، فذلك غير محمود ، بل المحمود العدل ، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه ، لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام ، وإجابة الدعوة ، والسعي في الحاجة ، ولا يحقره ، ولا يستصغره ، والله أعلم .

الفصل الثاني في العجب :

روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل[1] فيها الى يوم القيامة » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الهلاك في شيئين : العجب ، والقنوط . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير ، والقانط لا يطلب ، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى .

قال مطرف رحمه الله : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحبُّ إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

واعلم : أن العجب يدعو الى الكبر ، لأنه أحد أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة ، وهذا مع الخلق .

فأما مع الخالق ، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها ، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها ، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها .

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها .

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل ، فإن انضاف الى ذلك أن يرى حقاً له عند الله إدلالاً ، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به ، والإدلال يوجب توقع الجزاء ، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده .

فصل في علاج العجب

اعلم : أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك ، فلا معنى لعجب عامل بعمله ، ولا عالم بعلمه ، ولا جسيل بجماله ، ولا غني بغناه ، إذ كل ذلك من فضل الله تعالى ، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه ، وكونه محلاً له نعمة أخرى .

---

(١) أي : يغوص في الأرض حين يخسف به ، والجلجلة : الحركة مع الصوت .

فان قلت : إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك فمن أين قدرتك ، وكل ذلك من الله تعالى لا منك ، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه ، وهذا المفتاح بيد الله تعالى ، وما لم تُعْطَ المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها الا أن تُعطى مفتاحها .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

واعلم : أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر ، وقد سبق ذكرها وعلاجها .

ومن ذلك العجب بالنسب ، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف آبائه ، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل ؛ وإن اقتدى بهم ، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم ، بل الخوف والإزراء على النفس .

وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة ، لا بنفس النسب . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقَاكُم ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يا فاطمة ، لا أغني عنك من الله شيئاً » .

فإن قلت : إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته .

فالجواب : أن كل المسلمين يرجون الشفاعة ، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار ، وقد يقوى الذنب فلا تنجي الشفاعة .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا ألفين[1] أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء ، فيقول : يا رسول الله ، أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك » .

ومثل المنهمك في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة ، كمثل المريض المنهمك في الشهوات ، اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق ، وذلك جهل ، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها .

---

(١) اي ، لا أجد ولا الفي ، يقال : ألفيت الشيء : إذا وجدته .

ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة ، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم ؟!

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى :﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾[فاطر : ٨] . وعلاج هذا أشد من علاج غيره ، فإن هذا متى كان معجباً برأيه لم يُصغ الى نصح ناصح ، وكيف يترك ما يعتقده نجاة ؟! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به ،إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ،أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة ، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة .

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب ، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل ، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، وأن رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير ، ويصرف زمنه في التقوى ، وأداء الطاعات ، فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل الى معرفته ، هلك .

* * *

كتاب الغرور واقسامه ودرجاته

ومن الناس من غرته الدنيا ، فقال : النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والاخرة نسيئة ، وهذا محل التلبيس ، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة ، إلا إذا كان مثل النسيئة . ومعلوم أن عمر الانسان بالإضافة الى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء الى أن ينقطع النفس ، وإنما أراد من قال : النقد خير من النسيئة ، إذا كانت النسيئة مثل النقد ، وهذا غرور الكفار .

فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم ، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور ، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار ، من جهة أن أصل الايمان يمنعهم من عقاب الأبد .

ومن العصاة من يغتر ، فيقول : إن الله كريم ، وإنما نتكل على عفوه ، وربما اغتروا بصلاح آبائهم .

وقد قال العلماء : من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا الغفران مع الاصرار ، فهو مغرور .

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب ، وقد قضى بتخليد الكفار في النار ، مع أنه لا يضره كفرهم ، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا ، وهو سبحانه قادر على إزالتها ، ثم خوفنا من عقابه ، فكيف لا نخاف ؟!

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل ، وما لا يبعث على العمل فهو غرور . يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة ، وإيثار المعاصي .

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا ، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا ، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون .

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم ؟! وهل ذم أهل الكتاب بقوله : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾[الأعراف : ١٦٩] ، إلا لمثل هذا الحال ؟!

وأما من اغتر بصلاح آبائه ، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه ، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ومحمد مع أمه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى سائر النبيين .

ويقرب من هذا الغرور ، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح ، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغصب أضعاف ذلك ، ولعل الذي تصدق به من المغصوب ، ويتكل على تلك الصدقة ، وما هو إلا كمن وضع درهما في كفه وألفاً في أخرى ، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف .

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه ، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته ، ولا يحاسب نفسه على سيئاته ، ولا يتفقد ذنوبه ، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين ، ويتكلم بما لا يُرضي ، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار ، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه .

فصل [الاغترار واقع بالعلماء والعُباد]

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف :

العلماء ، والعبّاد ، والمتصوفة ، والأغنياء .

الصنف الأول : العلماءَ :

فأما أهل العلم ، فالمغترون منهم فرق :

منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم من الله بمكان ، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة ، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل ، ولولا العمل لم يكن له قدر . قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[الشمس : ٩] ولم يقل : قد أفلح من تعلم كيف يزكيها ، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم ، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، و﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[الجمعة : ٥] .

ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر ، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها ، كالكبر والحسد والرياء ، وطلب العلو ، وطلب الشهرة ، فهؤلاء زينوا ظاهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » .

فتعاهدوا الأعمال ، ولم يتعاهدوا القلوب ، والقلب هو الاصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً ، فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بقلعه ، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله ، فلم تزل أصوله تقوى .

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة ، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم ، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة . قال أحدهم : ما هذا بكبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، وإرغام المبتدعين ، فإني لو لبست الدون من الثياب ، وجلست في الدون من المجالس ، شمتت بي أعداء الدين ، وفرحوا بذلّي ، وفي ذلي ذل الاسلام ، وينسى الغرور ، وأن إبليس هو الذي سول له هذا بدليل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة .

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ، ونزع خفيه وأمسكهما ، وخاض الماء ، ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض ، فصك في صدره وقال : أوّهْ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة .

إنكم كنتم أذل وأحقر الناس ، فأعزكم الله برسوله ، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله[1] .

وفي رواية عنه : لما قدم الشام ، استقبله الناس وهو على بعيره . فقيل له : لو ركبت برذوناً تلقى به عظماء الناس ووجوههم ؟ فقال عمر رضي الله عنه : لا أراكم هاهنا ، إنما الأمر من هاهنا ـ وأشار بيده الى السماء ـ خلوا سبيل جملي .

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة ، والخيول الفارهة ونحو ذلك . وإذا خطر له خاطر الرياء قال : إنما غرضي بهذا إظهار العلم والعمل ، لاقتداء الناس بي ليهتدوا الى الدين ، ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان ،

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » ٢/ ٨٢ ، وإسناده صحيح .

وكذلك من يدخل منهم على سلطان ، ويتودد اليه ، ويثني عليه ، ويتواضع له ويقول : إنما غرضي بهذا أن أشفع في مسلم أو أدفع عنه الضرر ، والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك .

وقد ينتهي غرور بعضهم الى انه يأخذ من مالهم الحرام ويقول : هذا مال لا مالك له ، وهو لمصالح المسلمين ، وأنت إمام من أئمتهم ، فيغير بهذا التلبيس من جهة نظره الى نفسه ، وربما كان دجّالاً من الدّجالين من جهة قوله : هذا مال لا مالك له . وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال ، وذلك لا يمنع كونها حراماً ، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال .

وفرقة أخرى أحكموا العلم ، وطهروا جوارحهم وزيّنوها بالطاعات ، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك ، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها ، فترى أحدهم يُسْهِرُ ليله ويُنْصب[٢] نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها ، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى ، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت ، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه ، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة ، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير ، وأعظم منه علماً . فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفطن لها إلا الأكياس الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويحرص على صلاحها .

ومن سرته حسنته وساءته سيئته ، فهو مرجو أمره ، بخلاف من يزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق . فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم .

فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات . وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش ، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر الى ما لا يحل ، والمشي الى ما لا يجوز ، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات ، فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم .

---

(٢) أي ينصب .

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك ، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة ، وجعل يكرر ذلك ، وذلك غاية الغرور .

وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى .

وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُم طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ ﴾ الآية [التوبة : ١٣٢] . والذي يحصل له الانذار غير هذا العلم ، فان مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال ، ودفع القتل والجراحات .

والمال في طريق الله تعالى آلة ، والبدن مركب .

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة ، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى .

ومثال من اقتصر على ذلك ، كمثل من اقتصر في سلوك الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك أنه لا بد من ذلك : ولكن ليس من الحج في شيء .

ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف ، ولم يهمه إلا طريق المجادلة ، والإلزام ، والإفحام ، ودفع الحق لأجل الغلبة ، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم ، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف .

وأما أدلة الأحكام ، فيشتمل عليها علم المذهب ،وهي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما حيل الجدل ، من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب ، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام .

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء ، والرد على المخالفين .

ثم هؤلاء طائفتان : ضالة ، ومحقة ، فالضالة التي تدعو الى غير السنة ، والمحقة التي تدعو الى السنة ، والغرور شامل لجميعهم .

أما الضالة ، فاغترارها ظاهر ، وأما المحقة فاغترارها من حيث انها ظنت أن الجدال أهم الأمور ، وأفضل القربات في دين الله تعالى ، وزعمت أنه لا يتم لاحد دينه

ما لم يبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل ، فليس بكامل الإيمان ، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات ، وعميت بصائرهم ، فلم يلتفتوا الى القرن الأول ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى ، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات ، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال ، فان رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل .

وقد روي في الحديث : « ما ضل قوم بعد هُدَىً إلا أوتوا الجدل » .

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص ، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها ، فهؤلاء يدعون الى الله وهم هاربون منه ، فهم أعظم الناس غرة .

ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ الى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب .

ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن يكثر الصياح مجالسهم والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الانس .

ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث ، وجمع رواياته ، وأسانيده الغريبة والعالية ، فهمُّ أحدهم أن يدور البلاد ، ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروي عن فلان ، ولقيت فلاناً ، ولي من الاسناد ما ليس لغيري .

ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر ، وزعموا أنهم علماء الأمة ، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة ، ولو عقلوا لعلموا أن مضيِّع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيِّع عمره في معرفة لغة الترك ، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفي من اللغة علم الغريبين : غريب القرآن ، والحديث ، ومن النحو ما يقوّم به اللسان .

فأما التعمق الى درجات لا تتناهى ، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم .

ومثال التعمق في ذلك ، مثال من ضيَّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن ، مقتصراً على ذلك ، وذلك غرور ، لأن المقصود من الحروف المعاني ، وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج الى شرب السكنجبين لإزالة الصفراء ، فضيع عمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه ، فهو مغرور ، والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لا غير ، وتجاوز الى العمل ، واجتهد فيه وفي تصفيته من الشوائب ، فهذا هو المقصود .

وفرقة أخرى عظم غرورهم ، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق ، وظنوا أن ذلك ينفعهم ، بل ذلك غرور ، فان الإنسان إذا ألجأ زوجته الى أن تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى .

وكذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول لزوجته ، واتهابه مالها لاسقاط الزكاة ، ونحو ذلك من أنواع الحيل .

الصنف الثاني : أرباب التعبد والعمل ، وهم فرق :

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل ، وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى خرجوا الى الوسوسة في الوضوء ، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً ، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في التنجس ، ولا يقدر ذلك في مطعمه ، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء الى المطعم ، لكان أشبه بسير السلف ، فان عمر رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام .

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توضأ من مزادة مشركة[1]

ثم منهم من يخرج الى الاسراف في الماء ، ويطول به الأمر ، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها .

ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصلاة ، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام .

---

(١) الخبر مطولا في البخاري ١/ ٣٧٩ ، ٣٨٤ من حديث عمران ، وفيه أن أحد الصحابة كانت قد أصابته جنابة ، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم إناء من ماء أخذه من مزادة مشركة ، وقال له : اذهب فأفرغه عليك .

ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة ، ونحو ذلك ، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه ، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به ، وهذا من أقبح أنواع الغرور فان الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة في الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى سلطان ، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكراره ، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بالطرد والتأديب .

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذُّونه هذّاً ،وربماختموافي اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني ، ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه ، ولا يقف عند أوامره ونواهيه ، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط .

ومثال ذلك ، مثال عبد كتب اليه مولاه كتاباً يأمره فيه وينهاه ، فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ، بل اقتصر على حفظه وتكراره ، ظاناً أن ذلك هو المراد منه ، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه .

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن ، معرضاً عنمعانيه ،فينبغي أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم ، أو بالصوت ، أو بالمعاني .

وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه ، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول ، ولا بطونهم من الحرام عند الافطار ، ولا خواطرهم عن الرياء .

ومنهم من اغتر بالحج ، فيخرج اليه من غير خروج عن المظالم ، وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج ، ويضيعون في الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ولا يحترزون من الرفث والخصام ، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون .

وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونسوا أنفسهم .

ومنهم من يؤم في مسجد ، ولو تقدم عليه أورع منه وأعلم ، ثقل عليه .

ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله ، ولو أذن غيره في غيبته ، أشتد عليه ذلك وقال : قد زاحمني في مرتبتي .

ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده ، وقول الناس : فلان مجاور بمكة أو بالمدينة ، ثم إنه يجاور ويطمع في أوساخ الناس ، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات . وما من عمل إلا وفيه آفات ، فمن لم يعرفها وقع فيها ، ومن أراد أن يعرفها ، فلينظر في كتابنا هذا ، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هذا الكتاب ، وإنما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ما سبق .

وفرقة أخرى زهدت في المال ، وقنعت بالدون من اللباس والطعام ، وقنعت من المسكن بالمساجد ، فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهم مع هذا شديدو الرغبة في الرياسة والجاه ، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين .

وفرقة أخرى حرصت على النوافل ، ولم تعتن بالفرائض ، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ، ولا يجد للفريضة لذة . ، ولا يحرص على المبادرة إليها في أول الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ : « ما تقرب المتقربون إليَّ بمثل أداء ما افترضت عليهم »[1] .

الصنف الثالث : المتصوفة .

والمغرورون منهم فرق :

فرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة ، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر ، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة ، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ١١/ ٢٩٢ ، ٢٩٦ من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى قال : من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى احبه ، فاذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » والمراد بالولي : العالم المواظب على طاعة الله ورسوله ، المخلص في عبادته ، وقد اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته . وقال أبو سليمان الخطابي : هذه أمثال ، والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء ، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ، ويحفظه عن مواقعة ما يكره الله من الاصغاء الى اللهو بسمعه ، ومن النظر الى ما نهى الله عنه ببصره ، ومن البطش فيما لا يحل له بيده ، ومن السعي الى الباطل برجله .

وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض ، وهؤلاء غرورهم ظاهر .

ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ، ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار الأرض ، فاشتاقت نفسها الى ذلك ، فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً ، وتعلمت من رَجَز الابطال أبياتاً ، وتعلمت زيهم وجمع شمائلهم ، ثم توجهت الى العسكر ، فكتب اسمها في ديوان الشجعان ، فلما حضرت في ديوان العرض ، أمرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة ، فلما جردت إذا هي عجوز ضعيفة زمنة ، فقيل لها : جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته ، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل ، فألقيت اليه .

فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر الى القلب لا الى المرقعات والزي .

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال ، والوصول الى القرب ، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء ، فترى أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر الى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء ، فضلا عن العوام ، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحي ، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد ، ويقول : إنهم محجوبون عن الله ، وإنه هو الواصل الى الحق ، وإنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يُحْكِمْ علماً ولم يُهَذِّبْ خلقاً ، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان .

وفرقة منهم طووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام ، وبعضهم يقول : إن الله مستغن عن عملي فلمَ أتعب نفسي ؟

وبعضهم يقول : لا قدر للأعمال بالجوارح ، وإنما النظر الى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى ، وواصلة الى معرفته ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات

لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها ، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء ، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين .

وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى ، وكل ذلك أغاليط ووساوس ، خدعهم الشيطان بها ، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به .

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق ، واشتغلوا بالمجاهدة ، وابتدؤوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة ، فلما استنشقوا مبادىء ريح المعرفة ، تعجبوا منها ، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها ، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية . ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها ، قصرت خطاه وجره الوصل الى القصد ، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً ، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها ، فوقف ينظر اليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

الصنف الرابع : أرباب الأموال .

وهم فرق :

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت أثرهم ، ولو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله ، لما شق عليه ذلك ، فإن الله يطلع عليه ، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه .

وبعضهم يصرف المال في زخرفة المسجد ، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة للمصلين ، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين .

فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حراماً ، كان أشد في الغرور .

قال مالك بن دينار رحمه الله : أتى رجل مسجداً ، فوقف على الباب وقال ، مثلي لا يدخل بيت الله ، فكتب في مكانه صديقاً .

فبهذا ينبغي أن تعظم المساجد ، وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه

جناية على المسجد ، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام ، أو بزخرف الدنيا منه على الله تعالى ، فغرور هذا من حيث انه يرى المنكر معروفاً .

وفرقة أخرى يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج الى نفقة المال ، كالصيام والصلاة وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل مهلك ، وقد استولى على قلوبهم ، فهم محتاجون الى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم .

ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حيَّة ، فاشتغل عنها بطبخ السكنجبين لتسكن به الصفراء .

ومنهم من لا تسمح نفسه الا بأداء الزكاة فقط ، فيخرج الرديء من المال ، أو يعطي من الفقراء من يخدمه ، ويتردد في حاجاته ، أو من يحتاج اليه في المستقبل أو من له فيه غرض .

ومنهم من يسلم من ذلك الى بعض الأكابر ليفرقه ، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه ، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور ، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضاً عن غيره .

وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم ، اغتروا بحضور مجالس الذكر ، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاظ ، وليس كذلك ، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغباً في الخير ، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل الى ذلك الغير فلا وقع له ، وربما سمع أحدهم التخويف ، فلا يزيد على قوله : يا سلام سلم ، أو أعوذ بالله ، ويظن أنه قد أتى المقصود .

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري ، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ، ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها ، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك ، فهو حجة عليك .

فإن قيل : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يكاد يخلص منه .

فالجواب : أن مدار أمر الآخرة على معنىً واحد ، وهو تقويم القلب ، ولا يعجز

عن ذلك إلا من لم تصدق نيته ، فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها . وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان .

ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء .
العقل : وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء .
والمعرفة : التي يعرف بها الانسان نفسه وربه ودنياه وآخرته .

وفي كتاب المحبة ، وشرح عجائب القلب ، والتفكر ، وكتاب الشكر إشارات الى وصف النفس ، ووصف جلال الله سبحانه .

ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب «ذم الدنيا» وكتاب «ذكر الموت» ، فاذا حصلت هذه المعارف ، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله ، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها ، فيصير أهم أموره اليه ما يوصله الى الله تعالى ، وينفعه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب ، صحت نيته في الأمور كلها ، واندفع عنه كل غرور .

فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه ، واحتاج الى الأمر الثالث وهو العلم ، ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق الى الله تعالى وآفاتها ، والعلم بما يقربه منه ويهديه ، وجميع ذلك في كتابنا هذا .

فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج اليه ، وما هو مستغن عنه ، ويتأدب بأدب الشرع .

ويعرف من ربع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى ، وهي الصفات المذمومة في الخلق .

ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد أن توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها ، فإذا أحاط بجميع ذلك ، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور ، والله أعلم .

وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفاً أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه الى الرياسة ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى .

ولذلك قيل : والمخلصون على خطر عظيم[1] .

وقال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت : فُتني . فقل : لا بعد .

فلا ينبغي أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً . نسأل الله تعالى السلامة من الغرور، وحسن الخاتمة ، إنه قريب مجيب . آخر الغرور .

وبه تمَّ ربع المهلكات ، ونشرع الآن في ربع المنجيات .

* * *

(١) قطعة من خبز موضوع طالما تردد على ألسنة القصاص الذين لا يكفون عن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظه بتمامه كما أورده العجلوني في « كشف الخفاء » : « الناس كلهم موتى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم غرقى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » وبعضهم يرويه : هلكى في الكل ، ونقل عن الصغاني قوله : وهذا حديث مفترى ملحون .